16 em Année No. 761

Lundi — 2 — 2 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٧٦١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٧ — ٢ فبراير سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

محمد إسعاف النشاشيبي



أهكذا ، وفى أسرع من رجع النفس يسكت اللسان الذليق ، ويسكن العصب الثائر ، ويخمد الذهن المتوقد ، ويقف الفؤاد الذكى ، ويصبح النشاشيبي نعياً فى الصحف ، وخبراً فى البلاد ، وحديثاً فى المجالس ، لا يقول فنسمع ، ولا يكتب فنقرأ ؟ !

أهكذا ، وفى مثل ارتداد الطرف يترك النشاشيبي قلمه سائلا بالمداد ، وكتبه مهيأة للطبع ، ومجلسه مشتاقاً للسماع ، ومجلته منتظرة (للنقل) ، ويذهب إلى حيث لا يرجع ولا يكتب ولا يتحدث ؟ !

سبحانك يا رب ! شعاع أرسلته ثم رددته ، وروح بثثته ثم أعدته ، وظل بسطته ثم قبضته ، ولواء رفعته ثم خفضته ، وبنو آدم العاجزون الضعاف لا يملكون أمام أمرك البادى وسرك المكنون إلا أن يشكروا على العطاء والأخذ ، ويحمدوا على المحبوب والمكروه !

كنت ثالث ثلاثة استبقاهم الوفاء بجانب إسعاف فى ساعاته الأخيرة ؛ وكان الطبيب واقفاً يصف الدواء وينظم العلاج ويرشد الممرضة ؛ وكان المريض جالساً فى سريره حاضر الذهن حافل الخاطر يغالب انبهار النفَس من الربو ، ويجاذب العوّاد مارقّ من الحديث : فهو يضع لسانه حيث شاء من نوادر اللغة ، وطرائف الأدب ، فينتقل من الكلام فى (ليس غير) إلى الكلام فى ترجمة (جوته) لقصيدة خلف الأحمر ، حتى إذا سمع الطبيب يصف له البنسلين قطع الحديث وقال بلهجته المعروفة : أنا أكره البنسلين لأنه أنقذ تشرشل ! فقلنا له : ونحن نحبه لأنه سينقذ أبا عبيدة ! وكانت مظاهر العزم فى حديث (أبى عبيدة) توسع فى أنظارنا فسحة الأمل ، وتصرف عن أذهاننا فكرة الخوف ، فلم يدرق خلدنا أن المنية كانت مرنّقة فوق سريره تنتظر أنفاسه المعدودة أن تنقضى ، وألفاظه المسرودة أن تنفد ، فلم يكد السامر ينفض والساهر ينام حتى ختمت على فمه المنون فسكت سكوت الأبد !

ولد محمد إسعاف بن عثمان النشاشيبي بالقدس حوالى سنة ١٨٨٢ فى أحد البيوتات التى تجاذبت السيادة على فلسطين ؛ وكان أبوه من ذوى الثراء والدين والخلق فنشأه على الطباع العربية الأصيلة من جراءة القلب وصراحة الرأى وحرية الضمير . ثم أراد أن يجمع له أطراف المجد بالعلم والمال فبعث به إلى المدرسة البطرركية ببيروت فشدا شيئاً من مبادىء الآداب والعلوم ، ثم انقلب إلى أبيه ، وكان يومئذ وحيده ، فنظمه بالعمل فى سلكه ،

ونزل له بالبيع عن أكثر ملكه . وأخذ إسعاف يتقلب في ظلال أبيه على مهاد النعيم والخفض حتى تزوج أبوه زوجة أخرى ، ورزقه الله ولداً آخر ، فأراد إسعافاً على أن يرد إليه ما أعطاه ليكون شركة بينه وبين أخيه ؛ فأبى إسعاف أن ينزل عن شيء دخل في رزقه وأصبح من حقه . . . وانشقت العصا بين الأب وابنه ، فخرج إسعاف من كنف الأبوة مغاضباً يضطرب في المعاش ويسعى على نفسه . ومنذ ذلك اليوم عرف إسعاف الهم وذاق الألم وكابد البؤس . كان يعمل ليلهو فأصبح يعمل ليعيش ؛ وكان يقرأ ليلذ فأصبح يقرأ ليعلّم ؛ وكان يحيا لينعم فأصبح يحيا ليموت . وولى أبوه غفر الله له وساطة الناس أذناً صماء فلم يعنه على تكاليف العيش بتمكينه من ريع أرضه ، فذهب يستقطر الرزق من تعليم العربية في بعض المدارس . وكان يعول بعض الضعيفات من أهله ، فتحمل في سبيل ذلك رهقاً شديداً بقي أثره بارزاً في نفسه طيلة حياته ، تعاوده ذكراه في سكينته فيضطرب وفي لذته فيتألم .

ثم حسم الله الخلاف بينه وبين أبيه بالموت ، فوضع إسعاف يده على نصيبه من الثراء العريض . وعاد إليه الحظ بما يتملقه ويعتذر إليه ، فتلقاه الكادح المحروم كما يتلقى الثرى المكروب ماء المزن . وفي القدس شيد قصره المنيف ليكون مثابة للأدباء ومجمعاً للأدب ، ثم اقتنى مكتبة من أنفس الكتب وأندرها ، وأقبل عليها وهو لا يزال في ربيع العمر فقتلها علماً وفهماً وتدقيقاً وتعليقاً واختياراً واستظهاراً فلم يترك كتاباً مما أخرجته المطابع أو نسخته الأقلام في القديم والحديث إلا قرأه وعلق عليه واستفاد منه . ثم وقف بعد ذلك نفسه ووقته وجهده على دراسة الإسلام الصحيح في مصادره الأولى ، وتحصيل اللغة وعلومها وآدابها من منابعها الصافية ؛ وأعانه على ذلك قريحة سمحة وبصيرة نيرة وحافظة قوية وذوق سليم ، فكان آية من آيات الله في سعة الاطلاع وكثرة الحفظ وتقصي الأطراف وتمحيص الحقائق . ثم جلس على مكتبه كما كان يجلس ابن دريد ، عن يمينه زجاجة فيها مداد القلم ، وعن يساره أخرى فيها مداد الفكر ؛ وأخذ يعسل كما تعسل النحل إذا امتلأ جوفها بالرحيق . وفاضت بهذا العسل المصفى أنهر الصحف والمجلات في الشام ومصر ، فاشتاره القراء متنوع الطعوم مختلف الألوان متعدد الأسماء . ولئن سألوا لمن هذا الشراب أعياهم أن يجدوا الجواب في إمضاءاته الرمزية من نحو (ن) و(أزهري المنصورة) و(***) و(السهمي) ؛ لأن النشاشيبي لم يكتب للشهرة والمجد ، إنما كان يكتب للعصبية والعقيدة . أخلص لله فأخلص لقرآنه ، وأولع بمحمد فأولع بلسانه . فإذا جلس إلى الناس في القدس أو في دمشق أو في القاهرة كان مجلسه ندوة علم وأدب وفكاهة ، لا تذكر مسألة إلا كان له عنها جواب ، ولا تثار مشكلة إلا تبرق له فيها رأي ، ولا تُروى حادثة إلا ورد له عليها مثل ، ولا يحضر ندوته أديب مطلع إلا جلس فيها جلسة المستفيد . ثم كان في غير مكتبه ومجلسه يشارك في معارف فلسطين بعمله ، وفي المجمع العلمي العربي بعلمه ، وفي الثقافة العامة بكتبه ، وفي المحافل الأدبية بخطبه ، وفي المساعي الخيرية بماله . ثم أقلع منذ أربعة عشر عاماً عن شهوات الجسد فلم يبق له من لذاذات العيش إلا الكتاب العربي والسكارة التركية . ولكن إسرافه على شبابه أعقبه علة في شعاب الرئة جرّت إليه الربو ؛ واصطلحت هاتان العلتان على القلب طيلة عشر سنين حتى أضعفتاه ، ومن هنا جاءت منيته .

كان النشاشيبي جاد الله بالرحمة ثراه رجل وحده في الأسلوب والخط والحديث والتحصيل . أسلوبه عصبي ناري تكاد تحس الوهج من ألفاظه ، وتبصر الشعاع من مراميه . وخطه نمط عجيب بين الكوفي والتعليق لم يأخذه عن أحد ولم يأخذه منه أحد . وحديثه نبرات قوية تبرز الألفاظ ، وحركات سريعة تمثل المعاني ، وانفعالات شتى تتعاقب على قسمات وجهه وأصابع يده . وتحصيله عجب من العجب ؛ لا تستطيع أن تذكر له كتاباً من كتب العربية لم يقرأه ، ولا بيتاً من شعر الفحول لم يحفظه ، ولا خبراً من تاريخ العرب والإسلام لم يروه ، ولا شيئاً من قواعد اللغة ونوادر التركيب وطرائف الأمثال لم يعلمه ؛ فهو من طراز أبي عبيدة والمبرد ، ولذلك كان أكثر ما يكتب تحقيقاً واختياراً وأمالي . ثم كان إلى كل أولئك متواضع النفس ، فكه الأخلاق ، لطيف الروح ، نفّاح اليد ، عفيف اللسان ، مأمون المغيب ، لا يتمزز بحسبه ، ولا يطاول بماله ، ولا يباهي بعلمه ، ولا يفخر بشيء مما يتمدح به الناس إلا بالانتساب إلى العرب والانتماء إلى محمد ! إن النشاشيبي كان خاتم طبقة من الأدباء اللغويين المحققين لا يستطيع الزمن الحاضر بطبيعته وثقافته أن يجود بمثله . فمن حق المحافظين على التراث الكريم ، والمتزنين بالماضي العظيم ، أن يطيلوا البكاء على فقده ، وأن يرثوا لحال العروبة والعربية من بعده !

احمد حسن الزيات

عود إلى مسألة العقل

للأستاذ عباس محمود العقاد

تلقيت تعليقين على مقالى السابق فى الرسالة حول مناقشة الأستاذ نقولا الحداد فى مسألة العقل والدماغ .

أول هـذين التعليقين ينبهنى إلى مسائل أخرى فى مقال الأستاذ الحداد لم أتناولها بالرد ، وهى كثيرة لا تنحصر فى أصل العقل وعلاقته بالدماغ .

والتعليق الثانى يشير إلى قولى فى ذلك المقال : « المعقول أن الإنسان تكلم لأنه فكر ، وليس بمعقول أنه يفكر لأنه يتكلم » ويسألنى مزيداً من الإيضاح لرأى السلوكيين فى هذا الموضوع .

***

أما أننى تناولت مسألة العقل دون غيرها من المسائل التى تضمنها مقال الأستاذ الحداد فى عدد « المقتطف » الأخير فذلك صحيح ، وسببه أننى أردت التمثيل بطريقة الأستاذ الحداد فى التفكير ولم أرد أن أتعقبه فى كل فكرة وكل دليل .

فالأستاذ الحداد رجل فاضل مطلع على الآراء العلمية محب للبحث على الطريقة التى يسميها بالطريقة التجريبية ، ولكننى أحسبه — من كلامه — لم يشغل نفسه كثيراً بالمباحث الفلسفية ، ولم يعود عقله أن يعطيها حقها من التقدير الواجب والتأمل الطويل . ولا يعاب الأستاذ على ذلك لأن الناس جميعاً لم يخلقوا لمباحث الفلسفة ودراساتها ، بل حسب العارف من المعرفة ما تهيأ له وجنح إليه بطبعه واستعداده ، وإنما يؤخذ عليه أن يقدح فى معرفة لم يملك أسباب الحكم عليها ، وأن يتصدى لرأى من الآراء بغير عدته التى تعينه على نقده وتمحيصه .

ولا نريد فى هـذا المقال أن نتعقب كل ما كتبه الأستاذ الحداد فى مقاله بالمقتطف ، فربما أغنانا عن ذلك زيادة مثل آخر على انفراج الشقة بين طريقته الفكرية وبين الموضوعات التى يتصدى لها بغير عدتها .

فالأستاذ يستغرب مثلا قولنا « إن الوجود غير المعدوم » ويتساءل : «أى معنى تفيده عبارة غير المعدوم زيادة على الموجود ؟ أليست عبارة غير المعدوم مرادفة لكلمة الوجود لا مفسرة لها ؟ بل أليست كلمة موجود أوضح من عبارة غير المعدوم ؟ ... »

فلو أن الأستاذ الحداد كلف نفسه أن يراجع تعريفاً واحداً من التعريفات المصطلح عليها لاستغنى عن هـذه الأسئلة وأعادها إلى نفسه ليعلم أنها لا تبطل شيئاً مما أراد إبطاله .

فتعريف الجزيرة مثلا هو أنها قطعة من الأرض يحيط بها الماء من جميع الجهات . فماذا نفهم من قطعة الأرض التى يحيط بها الماء إلا أنها الجزيرة ؟ .

وتعريف الخط المستقيم مثلا هو أنه أقرب موصل بين نقطتين . فماذا نفهم من أقرب موصل بين نقطتين إلا أنه الخط المستقيم ؟ هل تطالبنى بإفهامك ما هى النقطة قبل أن تسلم بالموصل بين النقطتين ؟ هـل تطالبنى بتعريف الجهات حول الدائرة أو حول المثلث أو حول المربع أو حول المستطيل إذا كانت الجزيرة على شكل من هذه الأشكال ؟ .

كل ما يطلب من التعريف أنه ينفى الالتباس ويحصر الصفة . فإذا قلت لى ما هى مزية وصفك الوجود بغير المعدوم ؟ فهذه المزية هى أننا نخرج من هنا « غير المحسوس » و « غير المفهوم » و «غير المدرك» وغير المعلوم ؛ فلا ننفى وجود شىء لأننا لا نحسه أو لا نفهمه أو لا ندركه أو لا نعلمه . ويصبح الوجود بذلك أعم وأكبر من أن يلتبس بالمحسوسات والمدركات والمفهومات والمعلومات .

ولو أن الأستاذ أحسن تطبيق هذا التعريف لما استطاع أن يقول إن المكان « هو العدم المطلق » كما قال فى ذلك المقال .

فعلى طريقتنا نحن نقول إن المكان موجود لأنه غير معدوم . ونقيم الدليل على أنه غير معدوم بأنه يقاس ويحتوى الوجود . والعدم لا يقاس ولا يحتوى الموجودات . فلا يسمك أن تقول إن متراً مكعباً من العدم أكبر من قدم مكعبة من العدم . ولا يسمك أن تقول إن العدم المطلق يحتوى جميع الموجودات .

ولقد رأينا عقلا من أكبر العقول البشرية — كعقل إينشتين - يكاد يفسر الموجودات كلها بهذا الفضاء الذى يحسبه الأستاذ الحداد عدماً مطلقاً لا يوصف بمجرد الوجود .

فقد قال اينشتين إن كل وصف للأثير يمكن أن ينطبق تمام الانطباق على الفضاء . ومن ثم وضع تلك الصيغة المشهورة عن المادة الفضائية Spase Substance وعنى بها أن الفضاء جوهر وقد يكون مصدر جميع الوجودات . فأين مصدر جميع الموجودات من العدم المطلق فى رأى الأستاذ الحداد ؟

إذا كان رجحان الفكرة إنما يظهر لنا بمقدار ما تفسره من الأشياء التى لا تقبل التفسير بغيرها فالقول بأن الفضاء مصدر جميع الوجودات يفسر لنا أموراً كثيرة لا نستطيع أن نفسرها الآن ومنها أن الأفلاك وما فيها من المادة نشأت من السدم الملتهبة ... فمن أين جاءت السدم الملتهبة بالحرارة ؟ هل جاءت بها منها أو من خارجها ؟ فإذا كانت قد جاءت بها منها فقد فسرنا الماء بالماء . وإذا كان الفضاء هو مصدر كل حرارة فليس هو بالعدم المطلق كما يقول الأستاذ الحداد .

وهكذا يجهل الأستاذ الحداد معنى « غير المعدوم » فينتهى به الأمر إلى وصف أثبت الوجودات — أو مصدر الموجودات على هذا التقدير — بأنه العدم المطلق الذى لا يتصور له وجود ..!

إن إظهار الخطأ فى مقياس التفكير عند الأستاذ الحداد يغنينا عن متابعة كل اعتراض يعترض به على وجه التفصيل . فذلك عناء يطول كما يطول كل نقاش بين طرفين يجرى على غير قياس .

ولعل هذا التمثيل قد أغنانا عن التفصيل والتطويل .

***

أما قولنا إن الإنسان يتكلم لأنه يفكر — فرجعه عندنا إلى الحقيقة الشاهدة فى التفكير والكلام .

فالحقيقة الشاهدة أن الإنسان قد يجد الفكرة ولا يجد لها كلاما . ولو كان الكلام هو مصدر التفكير لما وجد الفكر إلا حيث يوجد الكلام .

والحقيقة الشاهدة أننا نجد عقولا رياضية وعقولا فنية وعقولا علمية وعقولا فلسفية ، وليس اختلافها فى التفكير متوقفاً على اختلافها فى الكلام .

والحقيقة الشاهدة أن الكلام قد يضيق بأفكارنا فنلجأ إلى التعبير عنها بالرموز أو بتشبيهات المجاز أو بالأنغام والألحان ، ولو كان هو الأصل فى تفكيرنا لما جاشت أنفسنا بفكرة واحدة لم نخلق لها قبل ذلك كلمة أو كلمات .

والحقيقة الشاهدة أن كثيراً من المعانى العقلية ليست مما يتمثل للحس ويتسمى بالأسماء . ومنها الأقيسة والمقارنات .

ومذهب السلوكيين ينقض نفسه بنفسه فى تعليل التفكير بالقدرة على الكلام . فإنهم يزعمون أن الإنسان لم ينفرد بالسلوك أو بتفاعل الغرائز الجسدية التى تجرى مجرى التصرف والتفكير . ولكنهم لا يذكرون لنا لغة للحيوان تصدر منها أفكاره أو تصرفاته ، ولا مناص لهم من ذلك إن صح عندهم أن كل تفكير فمصدره لا محالة من الكلام .

وقد ناقش العالم النفسانى الكبير وودورث woodworth هذا المذهب فساق من الأدلة على بطلانه أن الإنسان قد يقرأ قصيدة طويلة وهو يفكر — أثناء قراءتها — فى شىء آخر . وليس ذلك بممكن لو كانت مسألة التفكير مسألة « عضلية » تتحرك فيها العضلات حين تحركها الكلمات .

وفى كتب هذا العلامة وكتب وليام مكدوجال Mc Dougall على الخصوص إشباع واف للبحث فى مذهب السلوكيين عن التفكير يرجع إليه من أراد التوسع فى هذا الموضوع .

ونوشك أن نقول إن تعليل التفكير بالكلام قد يكون تعليلا كافياً لأفكار السلوكيين ومن جرى مجراهم ؛ ولكنه غير كاف لتعليل كل ضرب من ضروب الأفكار ... !

عباس محمود العقاد

مصاب العرب والعربية

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر المفوض لدى المملكة العربية السعودية

روّعت الأمة العربية ليلة الخميس حادى عشر ربيع الأول بنعى علم من أعلام لغة العرب، وأديب نابغ من أدبائها، وكاتب مبدع من كتابها. فجعت أمة العرب فى ابن بارّ منحها قلبه ولسانه وقلمه عشرات السنين؛ فما حلّ بها خطب، أو حز بها أمر إلا تصدى له ينصر أمته، ويرمى عدوها بنيران من الكلم، يرمى بها عن قلبه ولسانه وقلمه. وما اتهم العرب متهم، أو ازدرى تاريخهم مزدر، أو تجنى على نعمهم متجن، إلا انبرى يشيد بالعرب وتاريخ العرب ولغة العرب دفاع ذى الحفاظ الحر العارف الثبت. وما كتب كاتب فجار عن القصد فى كلمة من العربية أو قاعدة من قواعدها أو أخطأ فى رواية من الشعر أو النثر إلا سارع يرده إلى الصواب، ويقيمه على المنهاج. وهو فى كل هذا لا يدعى ولا يزهى ولا يجور ولا يفخر بل كثيراً ما كان يخفى نفسه بأسماء يستعيرها وإن دل عليه أسلوبه، ونادت عليه طريقته.

وما ضمّ ندية جماعة من الأدباء — وما كان أشد حرصه على لقاء الأدباء — إلا أفاض فى حديثه ودل على تمكنه فى الأدب وسعة روايته، وقل أن ينصرف جليسه إلا بجديد يستفيده فى اللغة أو الأدب.

ما أحسب القارىء إلا قد أيقن أنى عنيت مدره العربية، الذائد عنها، والمجاهد لها محمد إسعاف النشاشيبى رحمه الله رحمة واسعة.

فمن شاء فليقرأ كلمته عن اللغة العربية التى نشرها قبل عشرين عاماً، ومن شاء فليقرأ كلمته عن شاعرنا شوقى وكلمته عن المعرّى، وخطبته عن صلاح الدين فى ذكرى موقعة حطين. ومن شاء فليقرأ رثاءه لإبراهيم هنانو ولعبد المحسن السعدون، ومن شاء فليقرأ غير هذه من آثاره ليعرف أى قلب كبير فجع به العرب، وأى قلم فياض صوال حرمته العرب. وأى مدد فقدته الأمة العربية وهى فى حومة الوغى.

وما عهد القراء ببعيد بهذه النقل التى والى نشرها فى مجلة الرسالة منذ سنين فعرف بطرف من تاريخنا، ونوادر من أدبنا، وغرائب من سيرنا. فلما ثارت الثائرة فى فلسطين رأينا نقله فى آيات الجهاد وأخبار المجاهدين لا ندرى أجمعها بديهة أم كان لهذا اليوم أعدها. ولقد مات رحمه الله وهو ينشر هذه الكلمات تثبيتاً للمجاهدين وتوهيناً للباغين.

وكان، طيب الله ثراه، نسيج وحده، فى كتابته وخطابته لا يتقيل أحداً ولا يشبهه أحد. إنما كان صورة نفسه، وترجمان فطرته، ووحى نبوغه وعبقريته.

وحسب الإنسان أن يكون سورة متميزة، ومعجزة مستقلة وأ كثر الناس كما قال أبو الطيب:

فى الناس أمثلة تدور حياتها ... كمماتها ومماتها كحياتها

***

وكان محمد إسعاف، طاب مثواه، خلقاً من الأدب والمودة والوفاء يحرص على أصدقائه ويبالغ فى إكرامهم والاحتفاء بهم، وكان إلى ذلك أبياً متجبراً ثائراً إن سيم خسف، أو عرض أحد لكرامته، أو توهم أن أحداً يحاول الازدراء به. هنالك يتجلى العربى الأبى فيما ورث من أخلاق العرب، وما أشربته نفسه من تاريخ العرب وأدبهم.

وكان، رحمه الله، يحرص فى بلده على أن يلقى كل أديب يمر به، ويرى فرضاً عليه أن يحتفى به ويؤنسه ويدعوه إلى داره. وكم كانت داره ندوة الأدباء ومجمع العلماء. وقد قال فيها بعض أصدقائه: « ولهذا شدتها على الجبل وفى ملتقى السبل، علماً على علم، وراية للمروءة والكرم ».

لقد عظمت فجيعة إسعاف على كل من عرفه حق المعرفة، وتبين الفراغ الذى خلفه هذا العربى العبقرى. وإن مصيبة العرب كلهم فيه لكبيرة، وإن خسارة اللغة والأدب بفقده لفادحة: ولكن الرجل ترك فؤاده ولسانه وقلمه فى هذه الآثار الخافقة النابضة التى يقرأ فيها كل عربى وكل متأدب بأدب العرب، علم إسعاف، وأدب إسعاف، وحماسة إسعاف، وجهاده لقومه.

وبعد فحسب الرجل أن جعل مثله الأعلى محمداً صلى الله عليه وسلم، وجعل إعظامه وإجلاله ديدنه وهجيراه. ولقد رأيت فى

مكتبه من داره لوحاً كتب فيه « محمد » وقد علقه على الجدار أمامه يرمقه وهو جالس إلى مكتبه . ولقد قال لى : حسبى هذا الإسم أستوحى منه كل خير ، وأستمد منه كل سؤدد .

وقد حدثنى أنه كان فى أزمة من أزمات حياته يناجى رسول الله قائلا : « يا محمد ، خادمك وخادم دينك ولغتك تتركه لنفسه وتسلمه للأحداث » .

يا صديقى إسعاف . من لى بقلمك لأرثيك ؟ إنما هذه كلمات كتبتها على عجل فى هول الفاجعة التى تذهب باللب ، ويطيش لها البيان . وإن ذكراك لفى قلوبنا وعلى ألسنتنا وستبقى على أقلامنا ما ذكر الأدب العربى واللغة العربية ، وما ذكر تاريخ العرب فى العصور الثائرة التى نعانيها .

رحمك الله ورزقنا الصــــبر فى المصيبة ، وعوض العرب فيك خيراً .

عبد الوهاب عزام

١ ـ الفتنة الكبرى

للأستاذ محمود محمد شاكر

بادرت إلى قراءة كتاب « الفتنة الكبرى » الذى صنفه الدكتور طه حسين ، لأنه أول كتاب له عن رجل من رجال الصدر الأول من الإسلام ، وهو « عثمان بن عفان » أمير المؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنا أعرف للدكتور مكانه من العلم والتحقيق ، وحسن تأتيه فى تخريج الكلام ؛ فمن أجل ذلك أيقنت أنه سيملأ هذا الكتاب علماً يضارع قدر هذا الرجل ، ويوازن خطر الفتنة التى اضطرم سميرها فى آخر خلافته ، وانتهى باغتيال خليفة رسول الله اغتيالا لم يعرف تاريخ الإسلام أبشع منه ولا أفظع . وقلت لنفسى قبل أن أتجاوز الكلمة الأولى من الكتاب : إن طه خير من يصور للناس هذه الأحداث المختلطة المضطربة ، وخير من يهديهم فى شعابها إلى مفصل الرأى ومقطع البيان . وقديماً ما ضل الناس فى بيداء هذه الفتنة الظالمة ، وقديماً ما أخطأ الكتاب فهم هذا الحادث الجلل ، وقديماً ما حار الناس فى أمر المسلمين الذين ذبحوا خليفتهم كما تذبح الشاة المظلومة ، وقديماً وحديثاً ما خاض الناس فما خاضوا إلا معضلة لا يهتدى فيها سار إلى علم يفضى إلى جادة واضحة أو إلى غاية معروفة .

رميت بنفسى وعقلى فى هذا الكتاب ، وأنا على مثل هذه الثقة التى وصفت ، وبمثل هذا الأمل الذى أملت ، فما كدت أفرغ حتى رأيت الكتاب كله يختلج بين يدى . ولست أحب أن يعرف القارئ لم اختلج الكتاب . فهذا حديث طويل لو بدأت أقصه لما عرفت أين انتهى ، فأنا طاويه عنه ؛ لأنى أوثر أن أدع قلبه حيث هو من الاستقرار والأمن والرضى ، وأنا أفعل هذا وإن شاء هو أن أنشر هذا الذى طويت ، وأفديه وإن كره لنفسه هذا الاستقرار والأمن والرضى . وحسب القارئ أن ينظر معى إلى موضعين فى هذا الكتاب ، لم ينقض عجبى منهما ولن ينقضى عجبه حين يقف على خبرهما .

وأسبق القلم فأزعم أنى أسلم جدلا ، كما يقولون ، بأن كل الذى أتى به الدكتور طه صحيح فى جملته وتفصيله ، وأن الصورة التى أراد أن يصور بها تاريخ عثمان رضى الله عنه وتاريخ أصحابه ومعاصريه صحيحة أيضاً فى جملتها وتفصيلها ، وأزعم فوق ذلك أنى لا أخالفه فى شئ منها خلافاً ما ، وأنى لو كتبت تاريخ عثمان ، وتاريخ الفتنة ، لم أقل إلا بما قال إذ ذكر هذه الفتنة الخبيثة فقال ص ١٠٩ « فالفتنة إذن إنما كانت عربية نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء » . وأنت خليق أن تنظر فى هذا التكرار لهذه الصفة « فتنة عربية » و « عامة عربية » لتعلم ماذا يريد بهذا التكرار ، وما الذى يريد أن ينفيه من شركة أحد غير العرب فى دم عثمان ، وأنت خليق وحرى وجدير بأن تفعل هذا وأن تتأمل فتطيل التأمل ؛ لأنك سوف تلقى بعد قليل شيئاً جديداً كل الجدة ، وحسناً كل الحسن ؛ فما تكاد تمضى صفحات حتى ترى باباً فى ص ١٣١ يبدأ هكذا :

« وهناك قصة أكبر الرواة (المتأخرون) من شأنها وأسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ، ولما أورث هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين لم تمح آثارها بعد ، وهى قصة عبد الله بن سبأ الذى يعرف بابن السوداء . قال الرواة : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ، حبشى الأم ، فأسلم فى أيام عثمان ، ثم جعل يتنقل

في الأمصار يكيد للخليفة ويغري به ويحرض عليه ، ويذيع في الناس آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم في الدين والسياسة جميعاً » ثم يقول : « وإلى ابن السوداء يضيف كثير من الناس كل ما ظهر من الفساد والاختلاف في البلاد الإسلامية أيام عثمان ، ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيده إحكاماً ، فنظم في الأمصار جماعات خفية تستتر بالكيد ، وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة ، حتى إذا تهيأت لها الأمور ، وثبت على الخليفة فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام » .

فأنت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور منذ قليل على أن يصف الفتنة بأنها « عربية » ، وبأن العامة الذين كانوا شرار هذه الفتنة كانوا «عامة عربية» أي أنه ليس لهذا اليهودي الخبيث عبد الله بن سبأ يد فيها ، وأن ليس لليهود عمل في تأريث نارها . وهذا تخريج بين جداً ، لا يخالفنا فيه أحد ولا الدكتور طه نفسه فيما نعلم . ثم يمضي الدكتور في حديثه ليقول بعقب ذلك : « ويخيل إلى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً . وأول ما نلاحظه أنا لا نجد لابن سبأ ذكراً في (المصادر المهمة) التي قصت أمر الخلاف على عثمان ، فلم يذكره ابن سعد حين قص ما كان من خلافة عثمان وانتقاض الناس عليه . ولم يذكره البلاذري في أنساب الأشراف ، وهو فيما أرى (أهم المصادر) لهذه القصة وأكثرها تفصيلا . وذكره الطبري عن سيف بن عمر ، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر » . وأراني مضطرا أن أنقل لك أيضاً ما قاله الدكتور بعد ذلك في ترجيح رأيه وبيان حجته قال :

« ولست أدري أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن؟ ولكني أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن . وما كان المسلمون في عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارئ من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان ... ولو قد أخذ عبد الله ابن عامر أو معاوية هذا الطارئ الذي كان يهودياً فلم يسلم إلا كائداً للمسلمين ، لكتب أحدهما أو كلاهما فيه إلى عثمان ، ولبطش به أحدهما أو كلاهما . ولو قد أخذه عبد الله بن سعد ابن أبي سرح لما أعفاه من العقوبة التي كاد ينزلها بالمحمدين (محمد ابن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة) لولا خوفه من عثمان . . . ولم يكن أيسر من أن يتتبع الولاة هذا الطارئ ، ومن أن يأخذوه ويعاقبوه » ثم يقول في ص ١٣٤ : « فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط . ولنكبر المسلمين في صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء ، وكان أبوه يهودياً وكانت أمه سوداء ، وكان هو يهودياً ثم أسلم لا رغباً ولا رهباً ولكن مكراً وكيداً وخداعاً ، ثم أتيح له من النجح ما كان يبتغي ، فحرض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه » ثم يقول : « هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغي أن تقام عليها أمور التاريخ » . هكذا يقطع الدكتور الرأي جملة واحدة ! !

هذا هو الموضع الأول ، أما الموضع الثاني فهو أشد الأشياء علاقة بهذا ، ولكن الدكتور قطعه عنه قطعاً كريماً فترك صفحة ١٣٤ ومضى على وجهه في هذا البحث الجليل إلى أن بلغ ص ٢٠٩ لكي يقول : « وهنا تأتي قصة الكتاب الذي يقول الرواة إن المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر ، فكروا راجعين . فهذه القصة فيما أرى ملفقة من أصلها » ، ثم اختصر قصة الكتاب اختصاراً وقال : « كل هذا أشبه بأن يكون ملهاة سخيفة منه بأن يكون شيئاً قد وقع . والأمر أيسر من هذا تلقى أهل الأمصار وعداً من إمامهم فاطمأنوا إليه ، ثم تبينوا أن الخليفة لم يصدق وعده ! فأقبلوا ثائرين يريدون أن يفرغوا من هذا الأمر وأن لا يعودوا إليه حتى يفرغوا » . ثم تبين للدكتور أن إلغاء هذا الكتاب الذي أرسل إلى والي مصر يأمره بقتل رؤوس الوفد الذي جاء من مصر ، ليس يحل الإشكال في عودة الوفد بعد أن فصل عن المدينة راجعاً إلى مصر ، وتبين له أيضاً أن الفرض الذي ذهب إليه من أهل الأمصار تبينوا أن الخليفة لم يصدق وعده ، أي أنه كذب عليهم باللفظ الصريح ، شيء غير مستساغ ، فإنه سأل نفسه كيف تبينوا أنه كذب عليهم فلم يعرف كيف يجيب ، فألقى الفرض كما هو وزاد عليه أنهم أقبلوا ثائرين ، « فلما بلغوا المدينة وجدوا أصحاب رسول الله قد تهيأوا لقتالهم ، فكرهوا هذا القتال وانصرفوا كائدين ، حتى إذا عرفوا أن هؤلاء الشيوخ قد ألقوا سلاحهم وأمنوا في دورهم ، كروا راجعين فاحتلوا المدينة بغير قتال » ولكن رأي الدكتور طه وهو خير من يرى الآراء ، أن هذا الفرض مدخول كله إذا لم يعزز بفرض

آخر ، ففكر وقدر ، ثم نظر ثم قال : « وأكاد أقطع بأن قد كان لهم من أهل المدينة أنفسهم أعوان دعوهم وشجعوهم ، ثم أعلموهم بما عزم عليه أصحاب النبى ، ثم أعلموهم بمودة المدينة إلى الهدوء والدعة ، ثم انضموا إليهم حين حاصروا عثمان » . وهذه كلها كما ترى فروض وتخيل ، وإقرار أيضاً بما أنكره فى أمر عبد الله بن سبأ من تنظيم (الجماعات الخفية) التى تتستر بالكيد ، فهو ينكر هذا المبدأ هناك ويقره هنا ! ! ثم يمضى الدكتور فى فروض ، فرضاً من بعد فرض ، حتى يريك كيف تعقدت الأمور فجأة إلى أن كان مقتل عثمان ، ولكنه يختصر ذلك اختصاراً غريباً عجيباً لم أعرف له مثيلا فى كل ما كتب الدكتور وفرض وادعى ثم جزم الرأى وقطع به ، مما يعرفه أكثر قراء العربية الذين قرأوا للدكتور منذ أول نشأته فى الكتابة .

ولست أحب أن أقف بك عند شىء إلا عند هذين الموضعين فأنا أكره الإطالة فى تفلية كلام الدكتور ، خشية أن لا أنتهى ، فإن تحت كل حرف مما كتب علماً كثيراً لابد من تفليته وغربلته ورده إلى وجوه الحق التى زال عنها إلى سواها ، وأنت ترى أننا اضطررنا اضطراراً إلى الإطالة بالنقل ، لئلا يفوت عليك شىء من لب حديث الدكتور وعلمه . وقد بدأ الدكتور حديثه فى إسقاط قصة اليهودى ابن السوداء عبد الله بن سبأ فذكر أن « الرواة المتأخرين » أكبروا من شأنها وأسرفوا فيها ، وأنها لم ترد فى (المصادر المهمة) ، وأن (ابن سعد) لم يذكرها وأن البلاذرى لم يذكرها فى أنساب الأشراف (وهو فيما يرى الدكتور أهم المصادر) ، وأن الذى ذكرها هو الطبرى « وأخذه عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر » كما يقول الدكتور .

١ — وبدء الدكتور بقوله : « الرواة المتأخرون» فيه إيهام شديد ، متعمد فيما يظهر ! ! فإن الطبرى ليس من الرواة المتأخرين ، فهو قد ولد سنة ٢٢٥ ومات سنة ٣١٠ ، فهو معاصر (البلاذرى) وفى طبقة تلاميذ (ابن سعد) صاحب الطبقات .

٢ — أن سيف بن عمر الذى روى عنه الطبرى هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء ، فهو شيخ شيوخ الطبرى والبلاذرى ، وهو فى مرتبة شيوخ (ابن سعد) ، فقد مات فى زمن الرشيد ، أى فيما قبل سنة ١٦٠ من الهجرة . فلا يقال عنه ولا عن الطبرى أنهما من « الرواة المتأخرين » كما أراد الدكتور طه أن يوهم قارئه .

٣ — أن ذكر الدكتور (المصادر المهمة) فيه إبهام شديد وإجحاف جارف ، فإذا لم يكن كتاب الطبرى من (المصادر المهمة) فليت شعرى ما هى المصادر المهمة التى بين أيدينا ؟ .

٤ — أن الدكتور طه يعلم أن كتاب ابن سعد الذى بين أيدينا كتاب ناقص ، وأنه ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص وبعضها مختصر . والدليل على ذلك مما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر فى ٨٤ صفحة ، ولأبى بكر فى ٣٣ صفحة فلما جاء إلى عثمان ، والأحداث فى خلافته هى ما يعلم الدكتور طه ويعلم الناس ، لم يكتب سوى ٢٢ صفحة ، فلما ذكر على بن أبى طالب والأمر فى زمنه أفدح لم يكتب عنه سوى ١٦ صفحة . هذا على أن فى الكلام على طريق ابن سعد فى تراجم الرجال شىء آخر غير كتابة التاريخ ، فإنه لم يذكر فى هذا الفصل إلا قليلا جداً مما ينبغى أن يكتب لو أنه ألف كتابه فى التاريخ العام لا فى الترجمة للرجال . وهذا شىء يعلمه الدكتور طه حق العلم ولاريب .

٥ — أنه كان من حجة الدكتور فى نفى خبر عبد الله بن سبأ اليهودى اللعين أن البلاذرى لم يذكره ، وهو فيما يرى (أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلا) : ثم عاد فنفى أيضاً خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر ، مع أن البلاذرى ذكره وأطال وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره . ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبراً ما حجة فى نفيه ، ثم ينفى أيضاً خبراً آخر قد ذكره ولج فيه ؟

وهذه الخمسة أشياء كنت أستحى أن أحدث الدكتور بها أو أناقشه فيها ؛ لأنها من الوضوح والجلاء بحيث لا تخفى على رجل مثله خراج ولاج بصير بالعلم أحسن البصر . ولكن بقى شىء واحد أحب أيضاً أن يتاح لى يوماً ما أن أعرفه ، وهو : هل كان فى نص البلاذرى قديماً ذكر عبد الله بن سبأ اليهودى ثم سقط أو أسقط من الكتاب ؟ وهذا لا يتاح لى إلا إذا وقفت على نسخة قديمة وثيقة من كتاب أنساب الأشراف ، فإن هذه النسخة التى بين أيدينا إنما طبعت فى أورشليم ، وطبعها رجل من طغاة الصهيونية ، وقدم لها مقدمة لم تكتب لا بالعربية ولا بالإنجليزية بل باللغة العبرية ! وليأذن لنا الدكتور أن نشك أكبر الشك فى ذمة هذا اليهودى الصهيونى الذى طبع الكتاب

فى مطابع الصهيونية فى أورشليم . فقد رأينا من قبل رجلا آخر حاطه الدكتور طه يوماً ما برعايته وعنايته واستقدمه إلى الجامعة المصرية ، وكان يسمى نفسه « أبا ذؤيب » إسرائيل ولفنسون ، (وهو الآن فى فلسطين يجاهد فى سبيل الصهيونية) ، فألف كتاباً فى تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، وطبع فى مصر ، وقدم له الدكتور طه مقدمة أثنى فيها عليه ثناء بالغاً ، ومع ذلك فقد وجدنا فى الذى نقله من الأخبار والأحاديث تحريفاً وبتراً واقتطاعاً من نصوص محفوظة معروفة . أفلا يجوز لنا على الأقل أن نشك فى أن اليهودى الآخر طابع كتاب البلاذرى ، يفعل مثل هذا ؟ إننا على الأقل نشك ونتوقف . هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذرى ، قد يترك المؤلف فيها شيئاً فى مكان ، ثم يذكره فى مكان آخر ، وكان أولى أن يذكر فى المكان الأول ، وهذا شىء يعرفه الدكتور كما نعرفه وأحسن مما نعرفه ، أفلا يجوز أن يكون البلاذرى قد ذكره مثلا فى ترجمة (عمار بن ياسر) أو (محمد بن أبى بكر) أو (محمد بن أبى حذيفة) أو رجل ممن اشترك فى هذه الفتنة ؟ وهو يعلم أن الذى وجد من كتاب البلاذرى قسم ضئيل جداً طبع منه جزء فى ألمانيا سنة ١٨٨٣ ، ثم تولى اليهودى الصهيونى طبع جزء آخر هو الذى فيه ترجمة عثمان فى سنة ١٩٣٦ ، ثم طبع جزء آخر فى سنة ١٩٣٨ ، قال الناشر فى مقدمته المكتوبة بالعربية إن هناك حوادث جرت فى عهد يزيد بن معاوية ، هى وقعة كربلاء وموت الحسين « ولم تذكر فى ترجمة يزيد ، بل ذكرها فى تراجم بنى أبى طالب ، وذلك حسب ما اقتضاه نظام الكتاب وفقاً لتسلسل الأنساب » كما قال بنص كلامه . أفلا يجوز إذن أن يكون البلاذرى قد أدمج أمر عبد الله بن سبأ فى مكان آخر كما فعل فيما لاحظه وذكره هذا اليهودى ؟ كل هذا جائز ، ولكن الدكتور حين يريد أن ينفى شيئاً لا يبالى أن يجتاز كل هـذا ويمضى عنه ، ليقول فيه بالرأى الذى يشتهيه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف .

ثم كيف نسى الدكتور أن من لم يرو خبراً ما ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلاذرى والطبرى ؟ بل لعل الطبرى أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحصيلا له ، وهو الذى روى عنه أنه قال لأصحابه : « أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره قال : ثلاثون ألف ورقة . فقالوا : هذا مما تفنى فيه الأعمار قبل تمامه . فاختصره لهم فى ثلاثة آلاف ورقة . ثم قال لهم : هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحواً مما ذكره فى التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال : إنا لله !! ماتت الهمم ! » .

ومن قرأ كتاب الطبرى فى تاريخه أو تفسيره علم أن هذا حق ، وأن الرجل كان فارغاً للعلم لا يلفته عنه شىء قط ، ولا يدع شاردة ولا واردة إلا تقصاها وحققها ورأى فيها الرأى الذى لا يكاد ينقض . والفرق بينه وبين البلاذرى لا يخطئه بصير بهذا العلم فليس من الحجة فى شىء أن يقال (فى عصرنا هذا) : إن البلاذرى لم يذكر هذا ، فيكون ذلك كافياً فى الرد على ما ذكره الطبرى . وهذا شىء بين لا يحتاج إلى جدال كثير .

وإذن فالدكتور قد اشتط وركب مركباً لا يليق بمثله حين نفى خبر عبد الله بن سبأ ، وخبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل المصريين بعد الذى قد رأيت من تهافت أسلوبه فى البحث العلمى؛ وإذن فالدكتور قد خالف سنة العلم والعلماء فى نفى الأخبار وتكذيبها بلا حجة من طريقة أهل التمحيص ، بل تحكم تحكما بلا دليل يسوقه عن فضيلة البلاذرى وتقديمه على الطبرى ، وبلا مراجعة للصورة التى طبعت عليها الكتب ، وبلا دراسة لنفس الكتب التى ينقل عنها كما هو القول فى ابن سعد والبلاذرى معاً . وإذن فيحق لنا أن ننقل هنا كلمة للدكتور طه نفسه قالها عندما ذكر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر الخلاف الذى كان بينهم ، وذكر أو زعم أنهم تراموا بالكبائر وقاتل بعضهم بعضاً ، وزعم أنه لا ينبغى لنا أن يكون رأينا فيهم أحسن من رأيهم هم فى أنفسهم ، فقال فى ص ١٧٢ من كتابه :

« ينبغى أن نذهب مذهب الذين يكذبون أكثر الأخبار التى نقلت إلينا ما كان بينهم من (فتنة) واختلاف . فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذب التاريخ الإسلامى كله منذ بعث النبى ، لأن الذين رووا أخبار هذه الفتن ، هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازى وسيرة النبى والخلفاء . فما ينبغى أن نصدقهم حين يروون ما يروقنا ، وأن نكذبهم حين يروون ما لا يعجبنا . وماينبغى أن نصدق بعض التاريخ ونكذب بعضه الآخر ، لا لشىء إلا لأن بعضه يرضينا وبعضه يؤذينا » .

وهذا حق ، ولـكن الدكتور يحتج به فى معرض الطعن فى الصحابة ومعرض القول فى نسبة الأخطاء اللاحقة إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يعود فيسقط هذا الرأى ، ولا يبالى به ، ويخالفه أشـد المخالفة فى معرض رد الرُواة الذين رووا لنا خبر الفتنة الخبيثة التى تولى كبرها عبد الله بن سبأ اليهودى . ولماذا يفعل ذلك لا ندرى ، بل الحق أننا ندرى ولـكننا نأبى أن نتعجل القارئ بحكم لم نأت فيه بالبينة التى تدفع كل أقوال الدكتور فى قضية هذا اللعين ابن السوداء ، فللقارىء علينا حق لا يحل لنا أن نخونه فيه ، وحقه هو أن نرى حجج الدكتور كلها أولا ، ثم حججنا متابعة ثانياً ، ثم نعطيه الحـكم ليأخذه أو يدعه على هدى وبصيرة .

وموعدنا المقال الآتى بإذن الله .

محمود محمد شاكر

رأي مفتي حضرموت

فيما دار بين عزام باشا والسيد محمد بهجت الأثرى

كان السيد محمد بهجت الأثرى قد ناقش رأياً ورد فى كتاب عزام باشا (الرسالة الخالدة) حول مسـألة العدول عن النص إيثاراً للمصلحة ، ونشرت هذه المناقشة فى العدد ٧١٢ من الرسالة . وقد اطلع على هذه المناقشة السيد محمد بامطرف من المكلا بحضرموت ، وعرضها على العلامة السيد عبدالرحمن ابن عبيد الله مفتى الديار الحضرمية ، فأرسل رأيه فى الموضوع: وهذا هو :

الجواب والله الموفق للصواب أن الحق فيما ظهر لى كان فى جانب الأستاذ عبد الرحمن عزام ولـكنى رأيته سلك من الإنصاف ما لا يلزمه حتى أذله إذ لم يزل مع الصواب فى قرن فهو فى مياسره الدالة على طيب النية وصدق الإخلاص شبيه بذى الرمة إذ ورد الـكوفة فاعترضه ابن شبرمة فى قوله :

إذا غير النأى المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح

وقال أنه يدل على زوال رسيس الهوى لأن نفى كاد للاثبات فلم ينفصل وقد قال عنبسه حدثت أبى بذلك فقال أخطأ ابن شبرمة وكان لذى الرمة الانفصال إنما هو كقوله تعالى لم يكد يراها والمعنى أنه لم يرها وهذه شبيهة بتلك ، وليس الأستاذ بأول من قال بالعدول عن النص إيثاراً للمصلحة العامة بل له فى ذلك السلف الطيب من السادة المالـكية والحنفية والشافعية وحسبه من الحنابلة قول أحـد أئمتهم وهو العلامة ابن تيمية فى منهاج السنة أن الله بعث رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بتحصيل المصالح وتـكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها اه .

وقال الشوكانى فى المسألة مذاهب المنع مطلقاً وعليه الجمهور والجواز مطلقاً أى وإن خالف المنقول وهو المحـكى عن مالك والثالث إن كانت المصلحة ملائمة لأصل كلى أو جزئى من أصول الشرع جاز العمل بها وإلا فلا قال ابن برهان وهو الحق المختار والرابع إن كانت المصلحة طردية قطعية كلية كانت معتبرة وإلا فلا ، واختاره الغزالى والبيضاوى اه .

ولن يعوز الأستاذ عزام المبرر ولا سيما من الثانى والثالث ، وإشهاد الخليفة الثانى بمراعاتها أظهر من ابن جلا ، بل هو قطب تلك القاعدة فلا معنى لاستنـكارها ، وذلك الخليفة الجليل نقطة بيكارها وسنذكر عنه من مثلها ما يشاء الله أن نذكر . منها ما استدل به الأستاذ عزام من قضية الخراج ، فقد عدل ابن الخطاب عن الآية المحـكمة فيه وهى قوله جل ذكره : واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير وقد قال الأكثرون ومنهم الشافعية إنما فتح السواد عنوة فـكان غنيمة لا فيئاً . أما ما نقله الأستاذ الأثرى عن أبى يوسف عن ابن الخطاب من احتجاجه على منازعيه بآيات الحشر فإنه على الأستاذ لا له أما أولا فلأن آيات الحشر صريحة فى الفيء الذى لا إيجاف فيه بخيل ولا ركاب لا فى الغنيمة وبينهما بعد المشرقين . وأما ثانياً فإن الشافعية يتأولون لابن الخطاب تأويلين أحدهما ما ذكره شراح المنهاج بأنه قسمه بين الغانمين ومنهم أولوا القربى ثم استمال قلوبهم فبذلوه له فوقفه على المسلمين ولـكن ما نقله الأستاذ الأثرى من احتجاج ابن الخطاب بآيات الحشر يقطع خط الرجعة على هذا التأويل لأنه لو كان لم يـكن للاحتجاج بتلك الآيات معنى .

وثانيهما ما ذكره الماوردى فى الحاوى وأبو الطيب الطبرى فى شرح المزنى أن عمر عوض الغانمين من أرض السواد ووقفه على المسلمين وهو مثل سابقه ، ومن أين لابن الخطاب ما يعوضهم به حينئذ عن تلك الأرض الطويلة العريضة .وهو الذى لا يدع فى بيت المال صفراء ، ولا بيضاء إلا تبرأ منها إلى من يستحق . وقال قدامة ابن جعفر فى كتاب الخراج اختلف الفقهاء فى أرض السواد فقال بعض تخمس ثم تقسم الأربعة الأخماس على الفاتحين كما فعل صلى الله عليه وآله وسلم بخيبر لآية الانفال المحكمة فى ذلك وقال بعضهم أنها إلى رأى الإمام إن شاء جعلها غنيمة وإن شاء جعلها فيئاً كما فعل عمر بأرض السواد وأرض مصر انتهى مختصراً .

وهذا أيضاً لا يتناسب مع ما نقله العلامة الأثرى من احتجاج ابن الخطاب بآيات الحشر وقال ابن جرير أن عمر هم أن يقسم أرض السواد بين الغانمين كما تقسم الغنايم ثم قال كيف بالأجام ومنابع المياه والغياض والهضب المرتفع والغائط المنخفض وكيف يصنع هؤلاء بالماء وقسمته أخاف أن يضرب بعضهم وجوه بعض ثم جمع الغانمين فقال لهم ذلك فرضوا أن تقر الأرض حبيساً لمن يولونها من تراضوا عليها ثم يقتسمون غلتها فى كل عام فقال عمر اللهم إنى قد اجتهدت وقد قضيت ما على ، اللهم إنى أشهدك عليهم فاشهد اه .

وهو صريح فى أنه إنما جمع الغانمين ليتلو عليهم ما رآه وما أداه إليه اجتهاده . وهو من أقوى الأدلة لما ذهب إليه الأستاذ عزام فى أن ابن الخطاب إذا وقف به الأمر بين المصلحة والدليل كان من اجتهاده إيثارها عليه لاحتماله التخصيص والتأويل بخلافها وأما قول ابن جرير أنهم رضوا فبعيد جداً مع كثرتهم وغيبة كثير من أولى القربى المشروط رضاهم مع شح الأنفس بالأموال بل قد أشار الأستاذ الأثرى إلى حصول نزاع بين ابن الخطاب وبعض الصحابة فى ذلك مما يدفع ادعاء الرضى ، وقال ابن القيم ونازع فى ذلك بلال وأصحابه فطلبوا منه أن يقسم بينهم الأرض التى فتحوها فقال عمر : هذا غير المال ولكن أحبسه فيئاً يجرى عليكم وعلى المسلمين فقال بلال وأصحابه : اقسمها بيننا . فقال عمر : اللهم اكفنى بلالا وذويه فما حال الحول وفيهم عين تطرف ثم وافق سائر الصحابة على ذلك وكذلك جرى فى فتوح مصر والعراق وأرض فارس وسائر البلاد التى فتحت عنوة لم يقسم منها الخلفاء الراشدون قرية واحدة ولا يصح أن يقال أنه استطاب نفوسهم ووقفها برضاهم فإنهم قد نازعوه فى ذلك وهو يأبى عليهم ثم قال أعنى ابن القيم وليس هـذا الذى فعله عمر رضى الله عنه بمخالف للقرآن فإن الأرض ليست من الغنايم التى أمر الله بتخميسها وقسمتها .

وقوله أن الأرض ليست من الغنايم مبنى على قول ابن الخطاب أن الأرض ليست من المال ولكنه مخالف للحقيقة اللغوية وإن أخذ به السادة الحنابلة كما فى المقنع وغيره من كتبهم أن المسلمين إذا غنموا أرضاً فتحوها بالسيف خير الإمام بين قسمتها ووقفها على المسلمين وذهب مالك إلى أن الأرض المغنومة لا تقسم بل تكون وقفاً يصرف خراجها فى مصالح المسلمين وقالت الحنفية بتخيير الإمام بين أن يقسمها بين الغانمين وأن يقرها لأربابها على خراج أو ينتزعها منهم ويقرها مع آخرين وذهبت الشافعية إلى أن الغانمين يملكونها بانقضاء الحرب وهم أسعد القوم فى هذه القضية بالدليل وعليه فدعاء ابن الخطاب على بلال وأصحابه كان بدون مبرر وقد أخرج البخارى عن عمر أنه قال : أما والذى نفسى بيده لولا أن أترك آخر الناس ليس لهم من شىء ما فتحت على قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر قال الشوكانى فيه تصريح بما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنه عارض ذلك عنده حسن النظر لآخر المسلمين فيما يتعلق بالأرض خاصة فوقفها عليهم .

(البقية فى العدد القادم) **محمد عبد القادر بامطرف**

رجل استأثر به الموت

للأســــتاذ شكرى فيصل

لم أعرف المرحوم العلامة النشاشيبى من قُرب ، فقد كان أكثر ما أعرفه عنه ما أقرأه له ؛ ولم ألقه أو أجتمع إليه لقاء طويلا وإنما هى صورة مما يتحدث به الناس عنه ؛ ولم أستمع إليه إلا مرة واحدة فى دمشق لعلها كانت فى مهرجان المتنبى فى عيده الألفى ...

واستمعت إلى النبأ الفاجع بوفاته وأنا فى هدأة من الليل ، وحيداً فى هذا المنزل الذى أحتمى فيه من أذى النـاس وعن قصد أو غير قصد ... فاغرورقت عيناى بالدموع ، وندت منى آهة عميقة ، وأقفلت المذياع ، وجلست كما لو كنت أفـكر .

ولم يكن بى من حاجة إلى تفـكير ، فليس أشق على النفس من أن تلجأ إلى التفكير البارد فى حرارة المصاب ولوعة الفجيعة ، وإنما كان ذلك انسياحاً فى عالم من الخواطر تنساب على غير نسق وتمضى فى غير نظام .

وتمثلت الأستاذ ، وقد لمحته مرة فى فندق الـكونتنتال فى العام الماضى ، كتلة من الحيوية على اعتلال الجسم ، وغلبة السقم ، وتهدم البنيان ؛ وغيرة على العربية على قلة الغير ، وانعدام النصير ، وغلبة التطرف .

وتخيلت صوته فى مهرجان المتنبى ، لـكأنى أسمعه الآن ... دفقة من القلب ، يتفجر من نبعة الإخلاص كما يتفجر الماء من العين الثرة الغزيرة ، ويسرى فيه الوفاء للعربية ، ويطنى ويفيض حتى ليملأ كل ما حوله ومن حوله ، فإذا الذين يستمعون إليه يمضون معه وينساقون فى هذه الموجة التى يخلقها صوت متهدج ، ولـكنه قوى عنيف ، وتسايرها يد مرتجفة ولـكنها بيضـاء نقية ، ويطفو عليها الحق فلا يلبث أن يأخذك الحق بالرضا عنه والقناعة به .

وعرضت فى ذاكرتى هـذه المقالات ، وهذه التعليقات ، وهذه النقل ... فـكنت كالذى يعرض الثقافة العربية على اختلاف قطوفها ، وتباين ألوانها ، وتعدد ثمرها ... وانتبهت فجأة : أى ثروة عميقة خسرت الثقافة العربية حين اسـتأثر الخلود بروح النشاشيبى ...

إن أصدقاء العلامة المرحوم أقدر على الوفاء بحقه ، والذين خالطوه فى عواصم العرب فى القاهرة والقدس والشـام وكانوا يستمتعون بكريم خلقه وكريم فضله أقرب إلى الإحاطة بصفاته ، والـكشف عن نواحى التقدير فى هذا الجسم الذى ناء بالمرض . وإنمـا هى كلمة وفاء لرجل كانت تترك كتاباته وفصوله فى نفسى إيماناً بحبه للعربية ، ووفائه لهـا ، إيماناً لا أجـده إلا عند القليل القليل ...

إن الموت ليتخطف هؤلاء الأعلام ... ولـكن النشاشيبى لم يمت ... فقد صارع الموت الذى كان يندس فى كل أعضائه صراعاً عنيفاً ، وانتصر عليه فى هذه الثروة الأدبية التى خلفها ، وهذه الآثار التى تركها ، وهذه الروح العالية التى كان يفيضها على العربية والعرب ، وعلى الإسلام والمسلمين .

أيها الغريب الذى طارده الموت حتى ظفر به بعيداً عن أهله ووطنه ... رحمة الله عليك ... فقد أردت للعربية أن تعيش رفيعة مكرمة ... فبذلت لها جهدك ، وكرست لها عمرك ، وانفقت فيها حياتك ... أجزل الله لك الثواب ، وجعلك فى الخـالدين فى جنات النعيم ...

(القاهرة) **شكرى فيصل**

ترجمة وتحليل :

جزيرة الحب والجمال

بقلم الأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

.. عند مدخل خليج « نابولي » بإيطاليا جزيرة جميلة تسمى « إيسكيا ischia (١) » أوحت إلى الشاعر الفرنسي المشهور « الفونس دي لامرتين Alphonse De Lamartine » قصيدة من عيون الشعر ، فيها وصف رائع ، وخيال خصيب ، وتصوير دقيق ! .

اختار الشاعر لوصف الجزيرة أنسب الأوقات وأدناها إلى سمة الخيال ، فعرض علينا صورة من إيذان الشمس بالمغيب وطلوع القمر بعدها في رفق وأناة ، فكان مبتكراً في تصويره ، رائماً في خياله .

أصغ إليه وهو يرسل الشعر أنغاماً حلوة في مستهل قصيدته :

١ — «آن للشمس أن تحمل النهار إلى عوالم أخرى
فأخذ القمر يطلع في الأفق الخالي بلا ضوضاء
وراح — وهو يخترق الظلمات الحالكة —
يلقي برقعاً وضاء على جبين الليل ! »

فجمل القمر ينتظر رحيل الشمس بنهارها إلى عوالم أخرى لا تحد ، ليطلع بليله في أفق خال ما فيه مُنَ الناس أحد . وجمله وقوراً يتعالى في هدوء وسكون ليبدل دجى الليل نوراً ، فإذا جبينه وضاح بعد أن ألقى عليه برقعه الشفاف . ثم يبدع في إبراز نور القمر ، فيدعوك إلى إطالة النظر ، ورجع البصر :

٢ — «انظر من أعالي الجبال إلى أنواره المتموجة
كيف تُغرق السهول كأنها نهر من اللهب ،
وكيف تنام في الأودية وتتزحلق على الهضاب
أو تتدفق — من بعيد — من صدر يتلألأ بالمياه!»

فلو تابعت أنوار القمر كما تابعها « لامرتين » لخيل إليك كما خيل إليه أنها تسطع من وراء رءوس الجبال ، فرأيتها تشع رويداً رويداً على السهول ، فإذا هي تنساب من فوقها كالأمواج : فتنقلب السهول في عينيك نهراً غزيراً ، ولكنه نهر من ألسنة اللهيب لا من منهمر الماء ؛ ورأيتها تهبط إلى الأودية وئيدة مسترخية ، وإذا هي تستلقي عليها كالذي أخذته سنة من النوم : فتستحيل الأودية في عينيك فرشاً وثيرة ، غير أنها فرش بطائنها من النجم والشجر لا من سندس واستبرق ؛ ثم رأيتها تثب من نومها موفورة النشاط ، وتتسلق الهضاب بخفة ورشاقة ، ثم إذا هي تزحف عليها في دلال كالذي استهواه الجليد فتزحلق عليه : فتصبح الهضاب في عينيك قطعاً متجاورات من الجليد ، إلا أنه جليد من متناثر الحصى لا من متساقط الثلوج ؛ وبعد ذلك تراها تعدو كالسهم إلى مكان سحيق ، وتطوف في مجهل بعيد ، فتتبين من شعاعها أنها تحوم حول عيون وينابيع ، فتغوص فيها ثم تتفجر من صدرها وتتدفق : فتصير الينابيع في عينيك حساناً باديات النحور ، بيد أن نحورها تتلألأ بلُجيْن الماء لا بالدر والياقوت ! .

***

ويتأمل الشاعر المشهد تأملة الفيلسوف الذي يريد أن يتعمق كل مبهم ، ويستبطن كل سر ، ويجلو كل غامض ، ولو كان بعيد المتناول ، وعر الملتمس ، غائباً عن الأبصار — فيرى بعين بصيرته ما لم يره بعين وجهه : يرى ظلاً ممدوداً ، ووميضاً غامضاً ، فأما الظل فما مده إلا تنحيه عن منطقة النور وانزواؤه في بقاع الظلام الشاحب ، وأما الوميض فما ألبسه ثوب الغموض إلا ارتماشه وتردده حين يدنو من الظل الممدود محاولاً أن يبدل ظلامه الشاحب نوراً وهاجاً ، وأن يضفي على ليله الفاحم البهيم شعاعاً من نهار لازوردي بديع ؛ ويزيد هذا الوميض غموضاً وريبة ، وإبهاماً واستغلاقاً ، أنه يعود حائلاً خفيفاً ، باهتاً ضعيفاً ، حينما بعد عن العين في فضاء لا يتناهى ، واتساع لا يحد ؛ ومع ذلك فالآفاق تؤثر أن تسبح معه هنالك لتغرق في نوره .

٣ — « والوميض الغامض .. في الظل الممدود
يضفي على الظلام الشاحب شعاعاً من نهار لازوردي،
ومن بعيد . . . في فضاء لا يتناهى
يسبح بالآفاق غريقة في نوره الباهت ! »

(١) تهدمت هذه الجزيرة بزلزال شديد سنة ١٨٨٣

ولكن لامرتين لا يريد أن يصف الجزيرة وجمالها ، لا الشمس وغيابها ، ولا القمر وطلوعه ؛ وإنما عرض للشمس في بيت وللقمر في أبيات ، ليستلهم من ذهاب النهار بضجته ، وإقبال الليل بروعته ، معانى الخلود في قصيدته .

من أجل ذلك عاد إلى الجزيرة بقلبه ووجدانه ، وقلب البصر بين البحر وبين شطآنه ، فوجد البحر عاشقاً وألفى الشطآن معشوقة ؛ وما كان البحر ليعشقها لولا أنها ساكنة وادعة وهو عاصف هائج — ولا يغلب العاصفة كالسكون ، ولا يهدىء الهياج مثل الوداعة — فليسرع إلى تقبيل أقدامها كلما اشتدت به ريح ولا يحسبن في ذلك ذلة أو صغاراً ، وليضم بين ذراعيه جزرُها وخلجانها كلما أرغى وأزبد ، ولا يخافن في هذا لومة ولا عذلا ، ولتدب الحياة في هاتيك الشواطئ ، فعاشقها « البحر » ينفخ فيها من روحه ، وينعشها بأنفاسه الرطبة الخارجة من أعماق أعماقه ...

٤ — « والبحر عاشق هذه الشطآن الوادعة
يهدىء ، وهو يقبل أقدامها ، من عواصفه الهائجة
ثم يضم بين ذراعيه هذه الخلجان والجزر . . .
فتنتعش الشواطئ بنفسه الرطيب . . . »

ولا يفوت الشاعر أن يسجل منظراً عجباً سريع التغير ، شديد الانقلاب كثير الالتواء : منظر الموج إذ يتقدم متلاحقاً متدافعاً ، ثم يتراجع متقهقراً مهزوما . ففي تقدمه شوق كشوق المستهام إلى حبيبته ساعة يهذي فيرى طيفها ماثلا أمام عينيه فيسعى إليه وفي تراجعه لوعة كلوعة المتحسر ساعة يعود إلى الحقيقة ، فيعلم أن الطيف خيال ، وأن الخيال سريع الزوال .

٥ — « ومن بعيد ... يسرُّ العين أن تتابع منظراً عجباً
فترى الموج يتقدم تارة ويتراجع أخرى
كالدنف الولهان يضم إليه في هذيانه . . .
عذراءه التي تمثل أمامه ثم تفلت من بين يديه !

وكما رأى بعين بصيرته ما لم يره بعين وجهه ، يسمع « لامرتين » بأذن قلبه ما لا يسمعه بأذن رأسه : يسمع لحن الموج والشاطئ إذ يتنفسان بتأوه وأنين . أما الموج فيتنفس في تقدمه وتراجعه ويبث في الفضاء شكواه ! وأما الشاطئ فيتنفس كلما ارتطم الموج بصخوره ويبث مع الفضاء شكواه ! فكلاهما يتنفسان تنفس الصبي الحالم النائم الذي لم يبل الحياة بعد ويبث مع ذلك شكواه ! . .

حقاً أنها أصوات غامضة لا نعرف مبدأها ولا منتهاها ، ولا نصل إلى سرها ولا نجواها ؛ ولكنها — على غموضها — تطرب أسماعنا ، وتشنف آذاننا ، وتسعد نفوسنا . . فهل هي أصداء لألحان السماء ؟ أم هي أنفاس الحب ترددها أرض الشاطئ وموج البحار ؟

٦ — « اثنان كمثل الصبي النائم إذ يتنفس
بصوت غامض يبث في الفضاء شكواه .
ليت شعري أصدى للسماء ما يطرب منه أسماعنا؟
أم نفس الحب ترددها الأرض والبحار ؟

ثم يعود إلى الموج فلا يراه ثابتاً على حال ، يعلو طوراً كالجبال ويهبط طوراً زبداً يتلاشى ، فلا يبقى من لججه شيء ، كهذا الإنسان يولد طفلا فيتم تكوينه ويبلغ أشده في الشباب ، ثم يضعف مع تصرم الأيام كما رد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، ثم يلقيه العجز على فراش الموت فيحتضر بعد أن يبلو الحياة حلوها ومرها ، ويجرب منها سعدها ونحسها ، حتى إذا عجز عنها زهد في أمتع ما فيها ، وإذا ذاق من لذائذها شيئاً ضاق به ذرعاً وطلب سواه فما يزال يتحسر على المفقود ، ويسأم من الموجود ، حتى يطوى أجله في كتاب .

فكأن تنفس الموج أنين الكئيب الذي يحزن على ما فاته من مفقود ، لا على ما فقده من موجود ، فهو ملول مما عرف ، راغب فيما لم يعرف ، وهو من ملله ورغبته يتنفس في ضيق ، ويتأوه في حنين !

بل كأن كل ما في هذه الطبيعة — لا الموج وحده — يتحسر مثلنا معشر الناس حتى في ساعات الهناء والنعيم !

٧ — « إنه يعلو ويهبط . . . ويولد ثم يحتضر
كأنه ضاق ذرعاً بأنواع اللذائذ
وي ! كأن الطبيعة تتنفس في هذه الليالي
متحسرة مثلنا حتى في ساعات الهناء ! »

***

ويرى الشاعر عند هذا أن الإنسان خلق مجولا ، يسرف فى أنواع طالبه ، ويزيد فى ضروب رغبته ، ولا يقنع بالحاضر من لذته ، فيشيح بوجهه عن قليل بين يديه ، حباً لكثير لا يصل إليه ، فتضيق عليه الأرض بما رحبت ، ويعيش كاسفاً باله قليل الرجاء ؛ فهو لم يمت فيستريح ، ولكنه ميت بين الأحياء ، فينادى لامرتين هذا الميت — وهو فى اعتقادى لا ينادى غير نفسه — ليثوب إلى رشده ، ويفتح لتيارات الحياة روحه : إذ الحياة لا تضيق إلا بضيق الأنفس ولا تظلم إلا بظلامها ، كما لا تتسع إلا بسعتها ولا تشرق إلا بإشراقها .. فليفتح الإنسان للحياة ما استغلق من أبواب قلبه حتى يشعر بأنه حى ، أما إذا جعل دونها سداً فلا يلومن إلا نفسه إذا بقى ميت الروح . وليتلق الإنسان لذاذات الليل الحاضرة ، ومتعه العاجلة ، بجماع حواسه ، حتى يشترك سمعه وبصره وذوقه وشمه وكل عضو فيه فى الشعور بالحياة الحقيقية . وليغتنم الليل إذا سجا ؛ فإن له لباساً يغشى ، وحجاباً يستر ، وظلا يناجى ، وكوكباً يهدى . وليسكر بخمرة الغرام ، فإنها أشهى المدام : أما إذا لم يفعل فهو فى نظر هذا الشاعر ميت الروح ، حقيق بأن يسمع هذا النداء :

٨ — « أيها الميت ! افتح روحك لتيارات الحياة
وتلق بجميع الحساسات لذاذات الليـل
فظـله يناجيك ليسكرك بالغرام
وكوكبه فى السماء يطلع ليهديك ! »

وإن فى هذا لإغراءاً ما كان لمثلى أن يتقبله بقبول حسن ، ولا كان لى أن أسكت عليه لولا أنى أتمم قصيدة نصبنى منها ترجمتها وتحليلها ، ولولا ما يشفع للشاعر من أنه فى « جزيرة الحب والجمال » وأن له فى تلك الجزيرة محبوبة تواعدت معه على اللقاء عند هضبة قريبة ، واتفقا على أن توقد ناراً لتكون مناراً يضىء بين الحب فيجد هدى فى الاستدلال إلى الطريق . فالشاعر هنا يخاطب نفسه ويصور أحاسيسها قبل أن يخاطب أحداً أو يصور أحاسيس أحد . وإن ما فى هذه القصيدة من قوة الروح لعائد إلى أنها نابعة من إعجاب قلب « لامرتين » فى شىء من خصوصيات حياته .

فالنتيجة التى يريد أن يبلغها بنظمه هى إحاطة نفسه بشىء من معانى الجمال التى لا تتناهى فى الزمان والمكان ، وفيما تسمعه الأذن وفيما تبصره العين وفيما تمسه اليد وفيما يحسه القلب ، قبل أن يصل إلى موعد اللقاء الذى تبدو فيه الحبيبة من بعيد منحنية انحناءة الزنبقة المطشى إلى الماء ، لأنها عطشى إلى لقاء المحبوب ، تتسمع كل نأمة فى الليل وكل حركة وتحسبها خطاه التى تذرع الأرض فى سبيله إليها ، لتكتحل عينه بمرآها ، ويفرح قلبها برضاه

٩ — « أرى على الهضبة ناراً ترتجف من بعيد ؟
إنها بيـد الحـب منـار يضىء
هنـاك تنحنى الحبيبـة انحناءة الزنبقة
وقد أعارت أذناً صاغية تتربص خطى المحبوب ! »

هذه « ايسكيا » جزيرة الحب والجمال ، وصفها لامرتين فأحسن وصفها ، وسكب روحه كلها فى أبياتها ، لذلك اخترتها من بين قصائده لأترجها وأحللها ما استطعت دليلا على إرهاف حسه ، وصدق شعوره ، وعمق خياله ، ولأسجل إعجاب النثر بشاعر عظيم .

صبحى ابراهيم الصالح

مسابقة الفلسفة لطلاب السنة التوجيهية (٣، ٤، ٥)

٣ - الحـــــرية

للأستاذ كمال دسوقي

١ — جون استيوارت مل :

تضافرت ظروف « مل » الشخصية على أن تخلق منه رجلا متعدد نواحي الكتابة ، فالتربية الشاقة التي أخذه بها أبوه كما رأيت، وتدرجه حتى الرياسة في العمل بشركة الهند India House منذ السابعة عشرة حتى الخمسين ، ثم رفضه الاستمرار في أي عمل بعد أن انحلت شركة الهند الشرقية . فيما عدا عضوية البرلمان عن وستمنستر (١٨٦٥ — ١٨٦٨) ؛ قد أتاح له حتى وفاته سنة (١٨٧٣) من الفراغ ما تمكن معه من نشر مذهب واسع ، يتضمن — عدا كثير من المقالات في مجلة وستمنستر ، ونشر مذهب بنتام وأبيه طائفة من الكتب — تكون مذهباً عاماً — وإن يكن لكل منها فكرته الخاصة .

وتمدد شخصية استيوارت مل العلمية من خطر طلاب المسابقة ، فإنه لن يتحتم عليهم أن يلموا بمل المنطق الكبير في مؤلفه الضخم System of Logic (١٨٤٣) ولا بمل الاقتصادي بحكم دراسته الأولى في كتابه : الاقتصاد السياسي (١٨٤٨) ، ولا بمل الفيلســـوف الإنجليزي النزعة في كتابه « النفعية utilitaranism » الذي جمع مقالاته (١٨٦١) ، ولا بمل السياسي في كتابه : تأملات في الحكم النيابي (١٨٦١) ، ولا بمل الاجتماعي في كتاباته عن المرأة والدين والمنفعة — إلى آخره — أعني أن الكتاب الذي سيدرسه طلاب المسابقة يمكن تفهمه وحده في حدود معلومات عامة عن مل — كما يمكن — ابتغاء الاتفاق والتعمق — فصل هذا الكتاب عن بقية آثار مل » .

ومع هذا فلن يستطيع طالب المسابقة إلا أن يربط بين « الحرية » وكتاب « النفعية » على الأقل لأن هذا يبدأ حيث ينتهي ذاك ، ومع أن الحرية قد تم نشره أولا (١٨٥٩) بعد أن كانت فكرته منذ ١٨٥٤ موضع الدرس والتمحيص والنقد من المؤلف وزوجته ، فإن كتاب « النفعية » ترجع فكرته إلى مقالات كان قد نشرها من قبل تنقيحاً لمذهب أبيه وصاحبه بنتام — ولكنه لم ينشر إلا (١٨٦١) — وفوق هذا فإن مذهب النفعية لمل — كما يمثله هذا الكتاب — أوسع نطاقاً من الحرية ، لأنه يشمل الحياة الفردية والاجتماعية والخلقية والنفسية ، كما يدخل في السياسة والاقتصاد . ولذا نجد أن الناشرين الإنجليز يقدمون بين يدي مؤلفات « مل » بكتابه « النفعية » وإن كان كتابه عن الحرية أوفرها حظاً من الدقة والعناية في دراسته ، وبالتالي أهم معبر عن آراء الفيلسوف الخاصة وأكثر كتبه ذيوعاً .

لقد كان « مل » الصغير ، وهو يسمى بذلك تمييزاً له عن مل الكبير — أبيه جيمس من اتساع العقل ونفوذ الفكر بما لم يكن كثير من المؤلفين ، فحقق الأمل الذي عقده عليه أبوه في اصطناع مذهب النفعية التي ورثه وصاحبه بنتام إياه ، وإن يكن قد خرج به عما قصدا إليه بعض الشيء ؛ فإن المذهب بعد تعديل فيلسوفنا له قد قبله العامة أكثر من ذي قبل ، مع أنه لم يخل من الغموض والتناقض .

وخلاصة هذا المذهب في كلمة واحدة هي ما يتسع لها المقام هنا — ما تقول به نظرية المنفعة أو مبدأ السعادة من أن الأفعال تكون صواباً بمقدار ما ترى إلى تحقيق السعادة ، وخاطئة بقدر ما تؤدي إلى نقيض السعادة — ويعني بالسعادة happiness هنا تحقق اللذة pleasure ، وتجنب الألم pain ، كما يعني بالشقاء ، تحقق الألم ، وامتناع اللذة . ويقوم هذا المبدأ على فكرة اللذة النفسية psychological hydonism التي تفترض رغبة الإنسان بفطرته في أن يحقق لنفسه أكبر لذة ممكنة ، وأن يجتنبها كل ألم ، على ألا يتعارض في رغبته مع رغبات غيره ، وعلى أساس التضحية بالسعادة الفردية في سبيل سعادة المجموع ، والسعادة العاجلة انتظاراً لسعادة أكبر منها آجلة . أي تقديم الكيف qual ty في نشدان هذه السعادة على الكم quant ty وأخذها بأوسع معانيها بالنسبة لكائن متطور .

ولكي تفهم هذه النظرية — وغيرها من نظريات مل — ينبغي أن تقرنها بالنظرية التي يعارضها بها المؤلف قديماً وحديثاً — فإن مؤلفنا كان حريصاً أشد الحرص على أن يميز نظرياته عما يسبقها ، وأن يبين وجوه الشبه والخلاف بينها وبين غيرها — كما كانت طريقته في الكتابة أن يشرع بعد تعريف موضوع

كتابه — وربما قبله — فى نقد النظريات التاريخية السابقة ، وتفنيد الآراء الحديثة الشائعة ، ثم يعرض لنظريات بنتام وأبيه ، فينقد من هذه ويعدل مااستحق النقد والتعديل .

فهو فى مذهبه النفعى الذى يؤكده ويحوم حوله فى كل كتاباته ، ويخصص له هذا الكتاب ، انجليزى حق ، يتشبث بالواقع والتجربة المستمدة من التاريخ فى تطوره ، والأمور فى حقيقتها ، ويحمل على المبادئ المثالية العقلية ، والافتراضات الميتافيزيقية القبلية (السابقة على التجربة àpriori) ونظريته هذه فى النفعية تعارض — أشد ما تعارض — نظرية « كانت » الأخلاقية ، التى تجعل من الضمير والواجب والحدس الأخلاقى أساساً للفعل . فبينما هذه النظرية مثالية تزن السلوك الخلق بالدافع عليه الذى هو أوامر قطعية يفرضها الضمير والواجب ؛ إذا بهذه الأخرى واقعية مادية تزن السلوك بمقدار ما تحقق لنا غايته من سعادة ولذة ومنفعة .

٢ — كتاب الحرية :

ولن يعنينا أن نتبع نفعية « مل » أكثر من هذا ، ولكنا نعود إلى حيث قلنا إنه حيث ينتهى قوله فى هذه يبدأ مقاله عن « الحرية » فقد انتهت به مناقشاته لهذه النظرية إلى توكيد مبدأ على جانب كبير من الأهمية فى فلسفته السياسية ، لأنه لما جعل من المنفعة مقياساً عاماً لقيم الأفعال ، والحكم عليها بالخطأ والصواب بما تحمل فى غايتها من تحقيق اللذة وتجنيب الألم ، تبين له أن ثمت منافع جماعية هى أكبر أهمية من المنفعة الفردية بكثير ، وأنها أولى بأن تكون مقدمة وقاطعة ، وأن هذه المنافع العامة — مع أن القانون والسلطة يقومان على حمايتها — لابد لها أن تستند إلى تأييد شعور الفرد وعاطفته وتفضيله بمحض إرادته أى إلى حريته .

ولم تنحل المشكلة بذلك حلا حاسماً ، بل إن النزاع لا يزال قائماً منذ أقدم العصور فيما بين الحرية الفردية ، والسلطة الاجتماعية نتيجة لتعارض المنفعة الشخصية والمنافع العامة المشتركة بين المجموع . واتخذ هذا الصراع بين المنافع مظاهر شتى يعرض لها بالتفصيل .

فالكتاب ككثير من الكتب قبله لأفلاطون وأرسطو وهوبز وغيرهم التى تبحث فى فلسفة السياسة والحرية التى يقصدها المؤلف هنا ليست حرية الإرادة التى ضدها الجبرية فى الميتافيزيقا والأخلاق Determinisme بل الحرية الفردية التى ضدها السلطات الحاكمة فى السياسة والاجتماع Authorites ومدى ما لهذه الأخيرة من سلطان على الأولى ؛ فما نشأ عنه على طول التاريخ — كما قلنا — صراع ، نجد أهم مظاهره عند اليونان والرومان وفى إنجلترا ، بين طبقات الأهلين والحكومة أو بين الأهلين أنفسهم .

ذلك أن مشكلة الناس — حين يعيشون فى جماعة — أنه يلزمهم الخضوع لقانون وضعى ، أو لسلطان المجتمع ، حتى يحترم بعضهم حق بعض ، وهذه المشكلة الأساسية فى الحياة ، وإن لم يحسن الناس حلا فيما يرى « مل » ؟ وذلك لتعدد الأهواء الشخصية ، وتعارض المنافع الخاصة والمنفعة العامة ، ثم سعى السادة وراء مصالحهم الشخصية ، ومحاولة المسودين تملق هؤلاء السادة بفعل ما يحبون ، وما يظن أنهم يحبون ، وبغض ما يكرهون أو يبدو أنهم يكرهون ، ما تزال مشكلة كل عصر وإن كانت تبدو فى صور جديدة متغيرة .

وقد نتساءل : ولم تتعارض رغبات الفرد ورغبات المجتمع ، وما دخل السلطات الحاكمة فى هذا التعارض ؟ فاعلم إذن أن الناس يختلفون فى رغباتهم كما وكيفا ، وأن الناس وإن اتحدت رغباتهم أفراداً ، فإنه يتكون من مجموعهم « مجتمع » له هو الآخر رغبته الخاصة التى تختلف عن رغبة كل فرد على حدة — مع أنه فى حقيقة الأمر ليس إلا مجموع هؤلاء الأفراد — فثمت تعارض أبداً بين رغبات الفرد وبين « مجتمع » الأفراد ، وتمتد هذه العداوة إلى الحكام أنفسهم بوصفهم ممثلى هذا المجتمع والمعبرين عن رغباته ، بمعنى أن عداوة الفرد للمجتمع الذى ينازعه لذته ومنافعه تتجسم شخص الحكام أنفسهم القائمين على حمايته وتتعقد المشكلة أكثر حين تتدخل فى الأمر رغبات الحاكم نفسه كفرد — بأن تكون له لذاته ومنافعه وأهواؤه الفردية — إلى جانب ما يقوم عليه باسم المجتمع .

وباسم هذه الحرية الفردية فى التفكير والنقاش واستقلال الشخصية وصلاح المعيشة يتحدث « مل » فى الفصول الثلاثة الوسطى من كتابه ، فيمهد لها بمقدمة ، ويلحق بها تطبيقات مما سنفصل القول فيه فى المقالتين التاليتين

كمال دسوقى

فاس عاصمة الأدارســـة

للأستاذ مصطفى بعيو الطرابلسي

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

بدأ إدريس فى إنشاء هذه المدينة ببناء السور أولا وتشجيعاً للعمال لإنجاز مشروعه اشترك بنفسه معهم . ويمكننا أن نستدل من وصف كتاب « زهرة الآس فى بناء مدينة فاس » (١) لأبى الحسن الجزنائى لكيفية بناء السور أن المدينة كانت على شكل دائرى وأن أبوابها قد تعددت حتى زادت عن السبعة . نزل إدريس وحاشيته فى المكان الذى عرف فيما بعد بعدوة الأندلس بعد أن خصص مكاناً لإقامة الرضى شرق المدينة حتى تساعد الرياح الغربية على إبعاد رائحتهم ، وحتى يكون تصرفهم من الماء بعد خروجه من المدينة فلا يصل ضررهم إلى سكانها . وكما هى العادة المتبعة فى بناء المدن الإسلامية الجديدة شرع إدريس فى بناء مسجد الشرفا فى عدوة الأندلسيين .

واتبع إدريس خطة حكيمة لتعمير عاصمته الجديدة ذلك أنه نادى فى الناس بأن كل من بنى موضعاً او اغترسه قبل بناء السور فهو له هبة لله فتبارى الناس فى ذلك فأكثروا من العمارة ونوعوا فى الغرس حتى أصبحت المحاصيل وفيرة مختلفة رخيصة أسعارها مما ساعد على ازدياد عمرانها ما كان يقع فى ذلك الوقت من حوادث فى الأندلس إبان إمارة الحكم بن هشام مما ترتب عليه هجرة بعض الأندلسيين إلى فاس على أثر ثورة أهل الربض وما أنزله بهم من عقاب صارم .

خصص إدريس لهؤلاء المهاجرين حياً خاصاً عرف فيما بعد بعدوة الأندلسيين وهو إلى الشرق من المدينة وأصبح ينزل فيه كل من ترك الأندلس واتخذ المغرب وجهته فكأنه فرع الشجرة قد نبتت فى الأندلس ؛ كما نزل الوافدين عليه من القيروان بحى خاص بهم يعرف فيما بعد بعدوة القرويين فكانت مدينة فاس عبارة عن حيين اختص كل منهما بفريق خاص .

وكما هو الملاحظ فى نشأة المدن الجديدة فإن فاس سرعان ما ازدهرت وأصبحت محط رجال كثير من العلماء والفقهاء حتى ينالوا حظ التقرب من رجال هذه الدولة الجديدة فاشتهر اسمها فى الآفاق وأصبحت مقصد مسلمى مراكش منذ نشأتها وعلى كل حال إليها يرجع الفضل فى تخليد ذكرى دولة الأدارسة ولولاها ما انتبه إليهم المؤرخون .

ومن محاسن هذه المدينة موقعها الفريد ؛ فهى بعيدة عن الصحراء المجدبة وعن البحار وأخطارها ولكنها تتصل بهما بطريق غير مباشر . تتصل بالصحراء بطريق برى وبالبحر بنهر سبوا . ثم إن هذا النهر أيضاً يشقها نصفين وتتشعب جداوله بين دورها وأنحائها ثم يخرج منها وقد حمل أقذارها وبعد أن يدير رحيها . ولهذا النهر كذلك ميزة خاصة فى مياهه التى تساعد على شفاء كثير من الأمراض وأخيراً يجب ألا ننسى أنه إلى القرب منها توجد كثير من مقاطع الأحجار وكميات وافرة من الكلس تساعد على نشاط حركة البناء .

وبعد أن أتم إدريس بناء مدينته أخذ يخرج لغزو ما جاوره من بلاد على فترات متقطعة منتظمة ولكن المنية لم تمهله إذ مات فى ريعان شبابه قيل مسموماً وقيل إنه شرق بحبة عنب فمات .

واختلفت الروايات فى مكان دفنه فبعضها يقول فى مسجد الشرفا بفاس وبعضها يقول إنه دفن بجوار أبيه فى وليلى .

وبموته أخذت دولة الأدارسة فى الاضمحلال ذلك أن أولاده قد تقاسموا البلاد مما ترتب عليه وقوع الشحناء والتنافس بينهم ومن ثم إلى انقسام الدولة وتفككها . ومما زاد الطين بلة تلك الأخطار التى كانت تحدق بالدولة من الخارج .

فالفاطميون ومن قبلهم الأغالبة فى أفريقية والمغرب الأوسط والأمويون فى الأندلس وكل يعمل على محوها . وهكذا ترتب على هذا الاضمحلال السياسى اضمحلال حالة مدينة فاس فأفل نجمها بعد أن سطع فترة من الزمن وأصبح لا يقصدها إلا من أراد التبرك بزيارة بعض قبور الأدارسة لذلك لا نعجب إذا رأينا من الأمثلة المشهورة « فاس بلد بلا ناس » (١)

أما لماذا اختار إدريس الثانى هذه التسمية « فاس » لمدينته

(١) تولى نشر هذا الكتاب الأستاذ alfred Bel مدير مدرسة تلمسان بالجزائر باللغة العربية والفرنسية غير أن الطبعة الفرنسية قد قدم لها بترجمة لمؤلف هذا الكتاب وتحليل شخصيته وهو بمكتبة جامعة فؤاد الأول (٣٨٣٠ ت) .

(١) معجم البلدان ط دار السعادة ص ٣٣٠ : لياقوت

فقد تعددت فى ذلك الروايات وإن اختلف بعضها فى التفاصيل فإن أغلبها قد أجمعت على وجود مدينة قديمة قبلها قد طمرت معالمها وانمحت آثارها حتى جاء إدريس الثانى فجددها فى شكل مدينة فاس. فقيل[1] إن هذا الاسم قد اختاره لها إدريس عقب ذهابه لرؤية المكان الذى تم اختياره إذ صادفه رجل اسمه «فارس» وربما لغموض فى كلام هذا الرجل فهم إدريس اسمه على أنه «فاس» فسمى المدينة باسمه. ولكن هذه الروايات ضعيفة، ولا يمكن الأخذ بها. ويرى صاحب الدرر السنية[2] ويشاركه فى هذه الرواية الجزنائى [3] أن أحسن ما يمكن أن نعلل به هذه التسمية أن الإمام إدريس عندما خرج لمعاينة المكان الذى اختير لمشروعه مر به شيخ كبير من رهبان النصارى قد زاد عمره على المائة والخمسين سنة كان مترهبناً فى صومعة قريبة من تلك الجهة، فوقف على مولانا إدريس وسلم عليه ثم قال أيها الأمير ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين. قال أريد أن أختط مدينة هنا يعبد الله تعالى بها، ويتلى بها كتابه، وتقام بها حدوده. قال أيها الأمير إن لك عندى بشرى. قال: وما هى أيها الراهب؟ قال: إنه أخبرني راهب كان قبلي فى هذا الدير له منذ توفى مائة سنة أنه وجد فى كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى «ساف» خربت منذ ألف سنة وأنه يجددها ويحيى آثارها ويقيم دارسها رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس، ويكون له شأن عظيم وقدر جسيم لا يزال دين الإسلام قائماً بها إلى يوم القيامة. فقال مولانا إدريس: الحمد لله أنا إدريس وأنا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بانيها إن شاء الله تعالى. فلما بناها قيل له: كيف تسميها؟ قال: باسم المدينة التى كانت قبلها «ساف» ولكن أقلب اسمها الأول وتسميها بقلبة وسماها «فاس». وهذه الرواية بتفاصيلها ضعيفة للأخذ بها لتعارض بعضها مع الحقائق العامة المتفق عليها ولكن فى الغالب أنه كانت هناك مدينة قد اندثرت معالمها وهذا ما دفع الجزنائى إلى القول «ويدل على ذلك ما رواه البرنسى أن رجلا من اليهود احتفر أساس دار من قنطرة عزبلة من المدينة المذكورة ... فوجد فى الأساس قطعة رخام على صورة جارية منقوش على صدرها بالخط الهندى هذا موضع حمام عمر ألف سنة ثم خرب فأقيم موضعه بيعة العبادة» [1]

ويذكر لنا الجزنائى رواية أخرى ينقلها عن صاحب الاستبصار وهى أن الأمام إدريس عندما شرع فى بناء مدينته كان يعمل فيها بيده كما سبق ذكره فصنع اله فاس من ذهب وفضة فكان الإمام إدريس يمسكه بيده ويبدأ به الحفر ويختط به الأساسات للفعلة فكثر ذلك على ألسنتهم طوال مدة البناء فكان الفعلة يقولون هاتوا الفاس، خذوا الفاس، احفروا بالفاس. فسميت مدينة فاس. وربما كانت هذه الرواية أقرب إلى الصحة على الرغم من أن الجزنائى لا يأخذ بها ولا يؤيدها بل يعارضها لأنه يرى فيها ما يتنافى مع تمسك الإمام ادريس بعقيدته الإسلامية التى تتنافى مع استعمال الذهب بهذا الشكل وعلى أى حال فإن استعمال الذهب أو الفضة بهذا الشكل ما زالو معمولا به حتى يومنا هذا عندما يقوم بعض الملوك أو من يمثلهم فى الاحتفال بوضع الحجر الأساسى لأية منشأة جديدة؛ لذلك نراه ينتقل إلى ذكر رواية أخرى مؤداها أنه لما بدأ العمال بحفر أساسها من ناحية الجنوب وجدوا فاساً كبيراً طوله أربعة أشبار وسمته شبر واحد وزنته ستون رطلا من عمل الأوائل فسميت المدينة به.

بقيت كلمة صغيرة عن جامع القرويين ذلك أنه لما كثر على مدينة فاس الواردون أيام يحيى بن محمد بن إدريس كان ممن قدم عليها من القيروان محمد بن عبد الله الفهرى القروى ونزل كما هو المتبع بعدوة القرويين مع أهل بلده. وعند وفاته ترك ابنتين قد تحصل لهما ميراث كثير رغبتا أن تصرفاه فى وجوه البر فلما علمتا أن الناس فى حاجة لبناء جامع كبير فى كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين بالناس شرعت إحداهما فى بناء جامع عدوة القرويين أما الأخرى فقد تكفلت ببناء جامع الأندلس. وفى سنة ٣٠٧ هـ ازيلت الخطبة من جامع الشرفا لصغره وحل محله فى ذلك جامع القرويين لاتساعه وكبره والذى أصبح ملتقى العلماء والطلاب لسماع بعض الدروس الدينية فيه وما زالت حلقاته عامرة إلى يومنا هذا.

مصطفى بعيو الطرابلسى

(١) معجم البلدان ط دار السعادة ص ٣٣٠ : لياقوت.
(٢) ص ٧٣.
(٣) ص ١٨.

(١) ص ١٨.



انتقام!

صخاب ثائر لا يقر له قرار ، ينبعث صوته الغليظ الضخم من قاع حنجرته فإذا به مثل خوار الثور إذا اهتاج ؛ وإنه ليحدث من الضجيج وحده مالا يحدثه نفر من الرجال مجتمعين ؛ وما انبعثت جلبة من الشـارع فى أى ساعة من النهار أو الليل إلا ردها أهل الحى إليه ؛ ولا شهدوا زحمة أمام دكانه إلا أيقنوا أنها « خناقة » هو بطلها ، ولا وقعت مشاجرةٌ فملا إلا سألوا من المضروب هذه المرة فما يقع فى همهم قط إلا أنه هو الضارب، وما أحسبهم لو رعدت السماء ، وأبرقت إلا ظنوا بادىء الرأى أنه بدأ إحدى معاركه . . . ذلك هو بائع عصير القصب الذى ابتلانا به الله فجعل دكانه تجاه بيتنا يفصل بيننا وبينه الشارع .. والذى استغنى به من يخوفون الأطفال عن « البعبع » والغول والدب وأبى رجل مسلوخة وأضرابها ، ولا عجب فإنه والله لحرى أن يخوف به الرجال . .

فظ غليظ فى حدود الأربعين ، بين الطول والقصر ، متـكرش كأن بطنه قربة سقاء تحت ثوبه تترجرج ، ضخم الزندين ، متشحم العاتقين ، غليظ العنق ؛ منتفخ الأوداج ، مترهل اللغاديد ، صـغير الرأس حتى لتبدو عمامته الصوفية البيضاء نصف وجهه ، مفتول الشاربين صغير الحدقتين ، ضيق الجبهة ، واسع الفم طويل الأنياب : بحسبك أن تنظر إليه لتوقن أن فى بنى آدم من ينتسبون إلى الآدمية ظلماً ..

وقف هذا المتل أمام دكانه يصفع بيده الغليظة «صبيه» وهو فتى فى نحو الخامسة والعشرين قصير غير بدين ولا نحيف ، وعجبت إذ رأيته مطرقاً مسـبل العينين وملابس العمل تحت إبطه ، لا يتحرك إلا بقدر ما يتحاشى الصفعات واللـكمات ولـكنها تنزل جميعاً على وجهه وقفاه وعاتقيه ؛ وآلمنى هذا العدوان وما فيه من فظاظة كما أحزنتنى هذه المذلة التى كثيراً ما يكرب نفسى أمثالها ، ولعمرك ما أتألم لشىء ولا أثور لمنظر بقدر ما أتألم وأثور لمرأى إنسان فى موقف المذلة حتى ولو كان من الآثمين ؛ ولطالما سألت نفسى متى أجد فى شعبنا هذا من الأنفة والحفاظ ما ينسيه ذل القرون وأقول متى يستكبر عامة الناس فى هذه الأمة فيتطامن لهم من عليته وغاصبيه المستـكبرون ؟

وحسبت أول الأمر أن هذا العامل قد اقترف سرقة أو خيانة، حتى سمعته يقول وهو مسبل العينين فى تخشع « يا عم على . . لم تضربنى ؟ أنت الذى أخرجتنى » وكان أحرى به أن يقول : يا أيها الغول أو « يا عم الدب » ، وقال الغول فى صوته الفظيع وكأنما يريد أن ينشب أظافره فى عنق هـذا المسـكين « لأنك لا تريد أن تبقى حتى آتى بغيرك » .

وامتلأت حنقاً وألماً لهـذا البغى يقع من الغول صاحب رأس المال على الفريسة المسكينة ذلك العامل الضعيف، ولو كنت فى ملابسى التى أخرج بها إلى الشارع لاقتحمت على الدب كهفه ولو أدى الأمر إلى وقوعى بين أنيابه . .

ونظرت فإذا فتى فى مثل عمر المضروب وفى مثل قامته وجرمه ، يقف أمام الدب ويسأله فى عنف والشر ملء وجهه ، وقد تجمع السابلة والألم فى وجوههم جميعاً « لم تضرب هذا الرجل ؟ . . » ونظر إليه الدب نظرة استهزاء ظن أنها حسبه ليخاف ؛ وعاد يضرب العامل مبالغة منه فى عدم المبالاة فما كاد يرفع كفه حتى نزلت على صدغه هو ، أى والله على صدغ الدب السميك ، كف ذلك الفتى ! ودهش الناس جميعاً وتحمس بعضهم فصفقوا وهرول الغول إلى دكانه فأحضر سكيناً ، ولـكن الفتى باغته بكرسى ألقاه على رأسه ، ثم اختطف سكينه وأخذ بتلابيبه بيده ورفع السكين بالأخرى قائلا « هيه .. أفتح كرشك يا .. »

وأخذ الناس السكين من الفتى ، وخاف البعض عليه من الدب ، ولـكن ما راعنا جميعاً إلا الدب يرتمى على الأرض كأنه جذع شجرة ضخم والناس يصفقون للفتى ضاحكين معجبين . .

ونهض الفحل ثقيلا مستخزياً واستنوق الجمل، وحال الناس بين الفتى وبينه وإن الفتى ليتوثب ويتهدد ، ولست أدرى لم طرأت على ذهنى وقتئذ صورة ديكتاتور إيطاليا وكيف لبث يخوف العالم زمناً حتى اكتشف أمره .

وحسبت أن بين الفتى وبين ذلك العامل المسكين صلة من قرابة أو نسب ، ولـكن لم يكن بينهما كما علمت شىء من ذلك ، حتى ولا مجرد المعرفة ، ونزلت إلى الشارع فى ثياب البيت لأقابل البطل إذ يمر ببابنا ، بعد أن دخل ذلك الجمجاع دكانه لا يلفظ كلمة ، ومددت يدى للبطل وقلت « أترضى أن تتخذنى صديقاً » فضحك وقـد فطن إلى أنى رأيت كل شىء وقال فى تأدب « يا فندم أنا محسوبك » وعزمت عليه فشـكرنى ومضى وأنا معجب بنخوته أسأل الله أن يكثر من أمثاله .

الخفيف

الشاعر

للأستاذ طاهر محمد أبو فاشا

[مهداة إلى الطائر الصامت الصديق
الشاعر الأستاذ المهدى مصطفى]

الى مثله تصبو عذارى الخواطر   وفى يومه تصحو سكارى المزاهر
وفى كل همس حول معناه ضجة   وفى كل معنى منه أقنوم ساحر
ألمَّ على الأيام يسقى جديبها   ويبنى جديداً فوق أطلال داثر
هو الشعر ماغنى ربيع ، وما بكى
خريف ، وما اخضلت عيون الأزاهر
ترانيل أنسام ، وتسبيح جدول   وأنة موجوع ، ومصباح حائر
تشهته أم الفجر معنى لضوئه   وعاقره فى الليل صمت الدياجر
وودت بنات الزهر لو أن عرفها   من النغم القدسى سبحة خاطر
وإن جمالا لم تسجله ريشة   من الفن نهب للسواقى الثوائر
وإن حياة لا تحس جمالها   لتكثيف مصفود، وصفقة خاسر
هو الشعر ما كانت حياة ، وماجرى
على صفحة المقدور إلهام قادر
تغنت به الآباد من قبل عزفه   كلاماً فجاب الدهر أول عابر
وأرهص للأوتار حتى إذا شدا
تجاوب « فرح » الكون فى برح ساهر
ودقت نواقيس الحياة ، وأطلقت   رها بينها فى الأرض سحر المزامر
ونادى منادى السموات: أوقدوا   كواكبها فاليوم ميلاد شاعر
فضج بأعراس السماوات عيدها .
وقر على شط الحياة شريدها
تجردت الأنغام فهى عوالم   يترجم أسرار الوجود وجودها
وأقبل رب الشعر فى آى موكب   تحف به حور السماء ، وغيدها
وطاف به جبريل قبل نزوله   إلى العالم المحدود والأرض بيدها
فلما دنا من جوهر الشعر زلزلت
به الساحة الكبرى ، وماج أبيدها
وقيل له : ياشاعر الكون هذه   هى الجذوة الأولى، وأنت وقيدها
وغوث بالنار القديمة كاهن   ومس بها الدنيا فضاء عمودها

ودب بها معنى جديد ، وأمرعت
بطائحها الجدباء واخضر عودها
وأطلع ساقى الشعر فى البيد كرمة   منغمة يحدو الزمان نشيدها
ونادى نبى قومه : تلك واحة   على الأفق عذراء الجنان ولودها
فما آمنت بالشعر إلا لحونه
وران على الأرض العجوز جمودها
وقدر للدنيا الشقاء فألحدت   وجدف غاويها ، وضل رشيدها
وأشرعت الأطماع فيها ضغائناً   يجادل فى معنى السلام حديدها
وما كدر الأيام إلا ظماؤها   وهل شاب ماء العين إلا ورودها
فلا طاب نفساً بالحياة شقيها   ولا قر عيناً بالحياة سعيدها
أتنشد فى دنيا الحيارى من اهتدى ؟!
أفى الحانة الحمراء ترتاد معبدا ؟!
هرقت إذن – يا سادن الشعر – لحنه
وأهدرت للغافين نايا مسهدا
هى الأرض طبع فى بنيها . ومن تكن
جبلته الأولى ترابا تمردا
وكم ضارب فيها بمكاز تائه   يعد من الموتى، وإن راح أوغدا !
وكانت حياة الناس لولا زحامهم   عليها طريقاً للسلام معبدا
فلا تك نجما جاوز الليل وحده   ببيداء فانثالت أشعته سدى
لمن شارق فى الأفق إن كنت لا ترى
وفيم هتاف الورق إن كنت جلمدا
هنالك والدنيا رواية ظالم   وقصة مظلوم ، وتلفيق منتدى
وفى ليلة ظلماء ينسل برقها   كما جردت كف الكمى المهندا
وفوق رباة يكمن الدهر عندها
وتبصر فيها – قبل مولده – غدا
دعا ربه الشادى ، وأوفى بشعره   إلى العالم الثانى ، ومدَّ له يدا
وكف عن الأوتار فهى نواشز   كأعصاب محموم ألح به الصدى
وقال بنو الموتى : « لقد مات شاعر »
وكيف يذوق الموت من كان مخلدا
بقدر شعور المرء يمتد عمره   وفى حمأة الأوهام يردى بنو الردى
وما مات شاد بالجمال ، وإنما   إلى عالم الألحان عاد كما بدا
ومن فهم الأيام لحناً مجدداً   تراءت له الأيام لحناً مجددا

طاهر محمد أبو فاشا

الأدب والفن في أسبوع

الفنون في المولد النبوي :

كان الأسبوع الماضي أسبوع المولد النبوي ، على صاحبه الصلاة والسلام ، فقد تمطرت النوادي بهذه الذكرى الحبيبة ، وتحلت الصحف والمجلات بما نشرته فيها من الكلمات الطيبات ، وأذاعت لها دار الإذاعة برنامجاً حافلاً استمر أسبوعاً ، وقد افتتحه صاحب الفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية واختتمه الأستاذ أحمد حسن الزيات بحديث بليغ عن « بلاغة الرسول » .

ولا أحب إلى من أن أبدأ في هذا الأسبوع بالكتابة في هذه المناسبة الكريمة ، مسجلا المظهر الرائع الذي بدا فيه الاحتفال بالمولد هذا العام ، من حيث اتجاه الفنون الجميلة إلى الاشتراك فيه ، فإلى جانب الأدب من كتابة وخطابة وشعر ، نسمع المطربين يصدحون بالأغاني المؤلفة في مدح الرسول وذكرى مولده ، ونسمع كذلك التمثيليات الإذاعية والبرامج الخاصة . ومما يلفت النظر أن الجميات الدينية كالشبان المسلمين والإخوان المسلمين ، أدخلت التمثيل في برامج احتفالاتها ، فمثلت على بعض المسارح تمثيليات في تاريخ الصدر الأول من الإسلام . وهكذا تعاونت فنون الأدب والغناء والتمثيل على الحفاوة بمولد الرسول في هذا العام ، ولا أقول إنها أكسبته جمالا وروعة ، بل هي التي اتخذت منه موضوعاً لإبراز جمالها الفني ... وأي موضوع أدعى إلى الإبداع الفني من ذكرى الحبيب محمد بن عبد الله الذي انتقل حبه إلى قلوبنا ، على تعاقب الأجيال ، بتيار رسالته المشمة الهادية ، وأي شيء أليق بالفن من الحب ... ؟

السفينة العربية :

وقد استرعى انتباهي حسن التفات الأستاذ الزيات في حديثه إلى قوله عليه السلام « إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس ؛ فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا » وذلك من حيث تطبيقه على دنيا الإسلام والعروبة اليوم ، إلى أن قال الأستاذ : « وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم بما آتاه الله من ألمعية الذهن وإشراق الروح كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، فضرب هذا المثل لجامعة الدول العربية لعلها تتذكر فتتدبر » .

أقول : حيا الله شعب العراق ، فقد حال دون خرق السفينة العربية بهبته في وجه المعاهدة التي تهدد سلامة السفينة إذا اختلفت إحدى الشقيقات مع الانجليز ... وحيا الله دولتي سوريا ولبنان ، فقد أبتا أن تصنعا في مكانهما شيئاً برفضهما التعاهد مع الانجليز حتى ينتهي الخلاف بينهم وبين مصر ، وعلى جامعة الدول العربية قائدة السفينة أن تتذكر فتتدبر .

لقد قوض العرب الأولون أركان الدولة الشرقية (الفارسية) والدولة الغربية (الرومانية) وكانت عدتهم في ذلك الوحدة والإيمان والتضحية ؛ ونحن الآن لا عاصم لنا من الكتلة الشرقية والكتلة الغربية إلا هذه الصفات . ويخيل إلى أننا أخذنا بالوحدة واقتربنا من الإيمان ، ولكنا لا نزال بعيدين عن التضحية ، لأننا غارقون في الأثرة ، متعلقون بالرياسة وحب السلامة .

ويوم تتم لنا تلك الصفات ، تجد « الكتلة العربية » مكانها على قدم المساواة إن لم يكن في موضع التغلب ، وليس هذا اليوم ببعيد .

نشوء القومية في ألمانيا :

كان « نشوء القومية في ألمانيا وتصادم النظريتين الألمانية والفرنسية في تعريفها وتحديدها » موضوع المحاضرة الثانية من سلسلة المحاضرات التي يلقيها الأستاذ ساطع الحصري في الجمعية الجغرافية الملكية والتي حدد لها يوم السبت من كل أسبوع .

قال الأستاذ : كانت ألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر إمارات ودويلات متفككة سياسياً وإن كانت ذات وحدة لغوية ثقافية ؛ ولم يكن أهلوها يشعرون بالقومية ، وكان علماؤها وأدباؤها يتجهون في تفكيرهم وإنتاجهم نحو الإنسانية والعالمية ، فلما قامت الثورة

فى فرنسا أبدوا ارتياحهم إليها مؤملين أن تقضى على النعرات الوطنية وتهدف إلى تحقيق الخير للبشر ، ولكن لم يلبث أملهم أن خاب عندما غزاهم نابليون ، وفرض عليهم حكما استبداديا لحقت بهم الكوارث من جرائه ؛ فشعروا بالحاجة إلى الوحدة والتكتل وبدأ المفكرون يوجهون الشعب نحو القومية ، وشرع الأدباء والشعراء فى إنتاج الأدب الوطنى الحماسى الذى جعل لهذه الفترة مظهراً بارزاً فى تاريخ الآداب .

وكان على رأس أولئك المفكرين « فخته » الذى دعا إلى محاربة التفرق والضعف وإلى تعميم التعلم وتربية الشعب تربية تنتفى فيها الأنانية ، وبث فى أبنائه أن عليهم رسالة كبيرة يؤدونها للبشر عامة ، برفع شأن وطنهم أولا ، ثم نشر الرسالة فى خارجه وبهذا مزج بين الوطنية والعالمية . وكان يوجه كلامه إلى الناطقين باللغة الألمانية ، فكانت نتيجة ذلك أن شعر سكان جميع البلاد التى تتكلم الألمانية برابطة اللغة .

وأدت هذه الحركة إلى تكوين جامعة الدول الألمانية التى كانت تنظم العلاقة بين هذه الدول وإن كان يحكم كل منها حاكم مستقل وتحققت وحدة اقتصادية ، وتقدمت الصناعات ، وقوى الجيش . ووجدت ألمانيا الفرصة سانحة فى الانضمام إلى الحلفاء ضد نابليون فاشتركت فى حربه معها ، ولكن الحلفاء بعد أن تغلبوا على نابليون عاكسوا الحركة القومية فى ألمانيا زمناً طويلا ، حتى قيض لها بسمارك ، فعمل على تحقيقها بمختلف الوسائل .

وبعد أن أفاض الأستاذ فى بيان ذلك انتقل إلى النقطة الثانية من المحاضرة ، فقال إنه فى خلال تلك الحوادث نشأت نظريتان فى تعريف القومية : النظرية الألمانية القائلة بأن القومية كائن حى روحه اللغة الواحدة ، والنظرية الفرنسية التى تقول بأن القومية ليست كذلك وإنما هى شيء يقوم على مشيئة الشعب ، وواضح أن كلا من النظريتين كان يدفع أصحابها إلى القول بها مصالح بلاده فالفرنسيون لا يقولون باللغة أساسا للقومية ، لأنهم كانوا يريدون أن يضموا جزءاً كبيراً من ألمانيا إليهم بحيث تكون حدودهم عند نهر الرين ، والألمانيون يقفون فى سبيلهم داعين إلى وحدة بلادهم وهى ذات لغة واحدة .

واستعرض الأستاذ آراء كل من الطرفين ، ثم قال إنه كان متأثراً بالنظرية الفرنسية ، ولكنه بالبحث والتأمل تبين له بطلانها لأن المشيئة ليست أمراً ثابتا محدودا ، وأورد حوادث دالة على تغيرها ، ولأن هذه المشيئة إنما تكون نتيجة للعوامل الأساسية كاللغة والتاريخ ؛ وختم الأستاذ المحاضرة بقوله إن صحة نظرية القومية القائمة على اللغة وفساد نظرية المشيئة ، سيتبين بشكل أوضح فى المحاضرة القادمة عند ما نتكلم على الفكرة القومية فى النمسا والبلقان وتأثير اللغة والتاريخ فيها .

الشعر الآن :

رددت الصحف أخيراً قولا للأديب الفرنسى أندريه جيد :

« إذا وجد فى أى بلد شعراء مجيدون ، وإذا أحب أهل هذا البلد قراءة الشعر ، فاعلم أن النظام السياسى هناك نظام صالح قويم . أما إذا خلا البلد من الشعراء والنوابغ ، وإذا عزف الناس عن قراءة الشعر وترتيله ، فاعلم أن النظام السياسى هناك نظام فاسد معوج . وفى البلد الأول قلما تقوم الثورات والقلاقل ، وفى البلد الثانى قلما يهدأ الناس ويرضون عن حياتهم » .

ويبدو لى أن الربط بين وجود الشعراء وإقبال الناس على الشعر وبين استقرار الأحوال واطمئنان الناس فى حياتهم — يبدو لى أن هذا الربط يقوم على اعتبار الشعر ترفاً فنياً وعلى ما يسود حياة الناس من هدوء بال وهناءة عيش فيقبلون على الشعر يلتمسون فيه المتعة الفنية ، أو قلق وشظف فينصرفون عن هذا الكمال الفنى إلى مسائلهم ومشاكلهم .

ونحن ولا شك من الفريق الثانى ، والناس عندنا عازفون عن قراءة الشعر من غير شك أيضاً ، ولكن هل عندنا شعراء مجيدون ؟ يتوقف الجواب عن هذا السؤال على تعليل عزوف الناس عن قراءة الشعر ، فهل تصرفهم عنه شواغلهم ، أولا تعجبهم البضاعة الموجودة ؟

أما الشواغل والقلاقل فهى متوافرة ، وأما الإنتاج الشعرى فليس من السهل إطلاق الحكم عليه .

أحسب أن شيئاً من التبعة فى كساد الشعر يرجع إلى أولئك النقاد الذين هبوا فى فترة ماضية ، يعيبون على الشعراء الماشين فى حياة الناس القائلين فى مسراتهم وأحزانهم ، ويدعون إلى التجارب الذاتية والتحليق الفنى . ولهؤلاء النقاد وجهة فنية

سليمة إذا نظرنا إلى ما هالهم من التهالك على الرثاء المصنوع والتهانى المتملقة وغير ذلك مما ليس بسبيل التعبير الصادق ، ولكن كانت نتيجة تلك الحركة أن انكشف شعراء المناسبات عن الميدان ، وإن كان لا يزال فيه من يوالون تزييف التعبير وقد أصبحت تفاهة صنيعهم معروفة . أما التحليق فلم يُلف أجنحة فى أكثر أمره ... ومن حلق قصد إلى ترف الشاعر ، مزوراً عن مضطرب هذه الأمة المنكوبة فى حريتها وفى عيشها . ونظر الناس إلى هؤلاء وإلى هؤلاء شذراً ، لأنهم وجدوهم إما بعيدين عن الإجادة أو غير مسددين إلى أهداف المجتمع ، فكانوا عنهم معرضين.

وليس الأمر مقصوراً على جمهرة القراء ، فالإعراض عن قراءة الشعر يشمل الخاصة من المثقفين ، ولا أخفى أننى قلما أقع على شعر يقرأ ، وأكلف نفسى أحياناً أن أقرأ شعراً ، صابراً إلى نهايته ، ثم أقول فى نفسى: أترى هذا الكلام ينشر إذا جرد من الوزن والقافية وكتب نثراً . . ؟ والجواب مفهوم طبعاً ، وإذن فنحن نتخذ النظم «جوازاً» للنشر ليس إلا ...

كتب كاتب فى إحدى صحفنا الكبيرة « تقريظاً » لديوان أخرجه أخيراً شاب يتعلق بالشعر ، فتمثل الكاتب بما كتبه فيكتور هوجو عن لامرتين عقب نشر أول مجموعة شعرية له ، وهو قوله : « لقد ولد لنا الليلة شاعر عظيم جديد » فاستبشرت خيراً بمن ولد لنا وهو صاحب الديوان الذى يقرظه الكاتب ، ولكنه عفّى على ما أملت بإيراده طائفة من روائع شعره ، فقد نظرت فى هذه « الروائع » متخيلا تجريدها من الوزن والقافية فوجدتها كالذى وصفت . . وكذلك شأن أكثر من يولدون فى هذه الأيام !

وأعود إلى ما أسلفت من أنه ليس من السهل إطلاق الحكم على الجميع ، فثمة قلة من الشعراء يرتفع شعرهم عن مستوى الكثرة التى كادت تحملنى على القول بأن الشعر لاقى حتفه . أما الظاهرة الشاملة الملحوظة وهى انصراف الناس عن قراءة الشعر ، فان خالفتنى فى تعليلها فلن تختلف فى تقريرها .

وموقف الشعراء — فى نظرى — لا يخلو من ثلاثة : أن يظلوا يقولون لأنفسهم ، أو يقولوا فيما يعنى الناس وما يعجبهم ، أو يسكتوا حتى يفرغ الناس لهم .

معرض الفن الحديث :

فى يوم الخميس افتتح المعرض الأول للفن الحديث ، لخريجى قسم الرسم من معهد التربية العالى للمعلمين .

والفن الحديث فى الرسم ليس شيئاً مغايراً للفنون السابقة ، وإنما يعد تطوراً لها ، إذ يرى أصحابه أن الأسلوب (الفوتغرافى) فى الرسم صناعة آلية لا تغذى الفكر أو العواطف الإنسانية ، فهو أسلوب جامد لا يساير الحياة المتحركة ، ثم هو لا يتصل بالثقافات الأخرى من علمية واجتماعية وفلسفية . أما الفنان الحديث فقد أخذ بنصيب من هذه الثقافات التى تفاعلت فى نفسه مع الطبيعة الفنية ، فهو حينما ينتج لا يصور الحياة كما هى ، وإنما يضيف إليها شيئاً من فكره وشحنة من حسه فيتسلل إلى الحقائق والمتناقضات سعياً وراء الأفضل ، أو هو بتعبير آخر لا يقبل الواقع الماثل بل يدرك الواقع المتطور ويعبر عنه ، وهو يتحرر من كثير من القيود والأصول المعروفة .

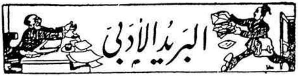
وقد شاهدت المعروضات ، وفهمت بعضها (ولا فخر) واستعنت على فهم البعض الآخر بأصحابه الأساتذة العارضين ، ومع ذلك لم أفهم كل شىء .. ولم أتحرج من مصارحتهم بذلك ، فكانوا يجيبون بأن الفنان قد يعبر عن شعور غامض فى نفسه أو عن تجربة له لم تتفق لمن لا يدرك مرماه .

وإذا كنا لم نقبل — فى الشعر — القول المأثور : المعنى فى بطن الشاعر ، فهل نقبل — فى الرسم — أن يقال : الفكرة فى بطن الفنان !

يجب أن توضح معالم هذا الفن حتى يتصل الشعور بين المنتج والمتفرج . وأى قيمة لعمل فنى تنقطع فيه الصلة بين المشاهد والفنان . . ؟

استعمار الأوبرا :

بدأ الموسم الشتوى للتمثيل فى الأوبرا ، بتمثيل الفرقة المصرية على هذا المسرح نحو شهر ، ثم جلت عنه للفرق الأجنبية التى تتعاقب عليه . عملت فيه أولا فرقة (البااليه) الفرنسية ، وتعمل به الآن الفرقة الإيطالية ، وستعقبها فرقة (الكوميدى فرانسيز) وهكذا تشغل هذه الفرق الثلاث مسرحنا الرسمى أكثر



حول رسائل الصاحب بن عباد :

هذه كلمة أكتبها مضطراً تعليقاً على مقال نشره بالرسالة الغراء في عددها ٧٥٩ الأستاذ محمد خليفة التونسي ، فقد كتب يصحح نصاً ورد في الرسائل كما كتب يصحح فكرة اتصلت باعتزال الصاحب .

ولو أنه كان يصحح نصاً حقاً وارداً في الرسائل أو يصحح فكرة جاءت حقاً في مقدمتها ما كتبت هذه الكلمة إذ من حق كل قارىء على ناشر لكتاب قديم أن يراجعه في صحة بعض الألفاظ التي نشرها كما أن من حقه أن يراجعه في صحة بعض أفكاره التي يقدم بها هذا الكتاب .

وهنا يظهر التناقض ، فالأستاذ الفاضل يصحح نصاً في الرسائل وليس في الرسائل ، أو قل بعبارة أصح إنه يصحح لفظة جاءت في إحدى عبارات الرسائل وليست في الرسائل ، وكذلك هو يصحح فكرة نسبها الدكتور الأهواني إلى مقدمة الرسائل أو بعبارة أصح إلى المدخل الذي وضع بين يديها ، وليست في المدخل .

أما اللفظة التي صححها الأستاذ التونسي فقد سيقت فيما رواه الدكتور الأهواني من قول الصاحب : « وما في النعم أجل موقعاً ، وأهنأ مشرعاً ، من النعمة في القول بالحق والدعاء إليه ، والتدين به والبعث عليه ، ومهانة من شبه الله بخلقه ، فتتابع في جهله ، أو جوره في فعله ، فشك في حسن نظره وطوله » . فقد تصادف أن كلمة جهله أصابها خطأ مطبعي فكتبت في مقال الدكتور الأهواني هكذا : « جهده » وحينئذ رأينا الأستاذ التونسي يفترض لها فرضين ، فهي في رأيه إما أن تكون حقه أوجهله ، ورجح أن يكون أصلها «حقه» كما رجح أن تكون كلمة « فتتابع » ليست كذلك وإنما هي « فتتابع ». وأظنه يرى الآن

الموسم ، في الوقت الذي تتعطل فيه الفرق المصرية لأنها لا تجد مسرحاً تعمل فيه ؟

وتلك الفرق الأجنبية بذلت لها حكومتنا المصرية ، إلى جانب مسرح الأوبرا ، إعانات كبيرة ، وأنفق مدير الأوبرا في سفره إلى أوربا في الصيف لاختيارها والاتفاق مع متعهديها مبلغاً آخر من المال ، ويجمع هؤلاء المتعهدون من (شباك التذاكر) أموالا طائلة قد يذهب بعضها من بعض المتعهدين اليهود إلى الصهيونيين في فلسطين .

ولم كل هذا الإغداق ، وذلك الاحتلال ؟ يقولون : لأن دار الأوبرا تقدم بتلك الفرق للجمهور المثقف نماذج من رائع التمثيل الغربي ...

ألم تر في الأيام الماضية القريبة تلك الصور التي نشرتها الصحف والمجلات لفتيات (الباليه) اللائي يرقصن بأجسام شبه عارية ؟ وفي الفرقة نحو عشرين فتاة من الفرنسيات ، أعمارهن بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين ... أهذا هو الفن الرائع الذي تقدمه الدولة الإسلامية للمثقفين فيها ، وليكون مدرسة يفيد منها الفن في مصر ؟ !

ثم ما هو الجمهور الذي يستفيد من هذا التمثيل ؟ إنه يتكون من صنفين : الأول الأجانب ، والثاني الأغنياء الذين يتخذون من مشاهدة هذه الحفلات مجالا للأرستقراطية المزهوة... ومعرضا لثمين الفراء ونادر الجواهر .

على أنه إذا فرضنا أن لهذا التمثيل الغربي فائدة تثقيفية فنية ، فإن هذه الفائدة لن تكون إلا كمالية ، ونحن أحوج إلى العناية التي تبذل لها في تدعيم الضروري من فن التمثيل المسرحي الذي يكاد يختنق في بلادنا ، لأن حياة المسرح المصري أساس لتقدمه فكيف نعمل على تقدمه وهو يحتضر !

لقد كانت فرقة واحدة تكفي — إن كان لا بد من النماذج الغربية — للعمل شهراً واحداً ، ثم تمكن الفرق المصرية من أن تأخذ نصيبها من مسرح الدولة ومن تشجيع الدولة .

وبعد فإلى متى تظل دار الأوبرا مستمرة للفرق الأجنبية ؟ ومتى نضع حداً للاستكثار من الخير للأجانب والمترفين ؟

« العباس »

أنه ليس هناك داع لكلمة حقه ولا لكلمة تتابع ولو رجع إلى الرسائل نفسها فى تحقيق هذه العبارة لكان فى غنى عن كل ما أورده فى هذا الباب .

والمسألة الثانية التى حاول أن يصححها هى ما جاء على لسان الدكتور الأهوانى فى مقاله عن اعتزال الصاحب إذ قال : « نستطيع أن نطمئن إلى ما ذكره ياقوت عن الصاحب من أنه كان يذهب مذهب الاعتزال ولكن الدكتور عزام بك والدكتور ضيف لا يطمئنان إلى أن الاعتزال « أكان هذا من عمله هو أم من عمل الدولة ، فقد كان عضد الدولة يذهب – فيما يظهر – إلى الاعتزال » وآخر كلام الدكتور الأهوانى يوهم حقاً أننا نظن أن اعتزال الصاحب يرجع إلى اعتزال سيده .

ومن هنا ذهب الأستاذ الفاضل التونسى يتحدث تحت تأثير هذا الوهم عن اعتزال الصاحب ولماذا نربطه باعتزال سيده ، ثم استطرد يتحدث عن صلة البويهيين بالاعتزال ، وهو يشكر على ما بذل فى ذلك من جهد لكنا نؤثر أن يعود إلى مقدمتنا للرسائل ، إذن لعرف أنه كان فى غنى أيضاً عن كل ما ساقه فى هذا الباب .

وقد تكون العهدة فى ذلك على الدكتور الأهوانى الذى كتب المقال الأول ، ولكن ذلك لا يعفى الأستاذ التونسى من حقنا عليه وهو أن يحاسبنا على ما نكتبه لا على ما يكتبه غيرنا وإن بدا أنه ينقل عنا .

والمسألة – يا سيدى – لم تكن مسألة اعتزال الصاحب إنما كانت مسألة دعوة الصاحب إلى الاعتزال ، فقد رأيناه فى الرسائل يدعو الناس إلى الاعتزال ولم نره يدعو إلى التشيع ، ومعروف أن البويهيين كانوا متشيعين وكذلك كان الصاحب متشيعاً ، والمعقول أن نجده يدعو إلى التشيع لا إلى الاعتزال .

وقد جعلنا ذلك نبحث عن صلة البويهيين بالاعتزال وخاصة عضد الدولة التى توجت الرسائل غالباً باسمه ، ووجدنا آدم ميتز يقول إن عضد الدولة كان يعمل على مذهب المعتزلة (راجع الحضارة الإسلامية لآدم ميتز طبع لجنة التأليف ص ١٠٢) ولم نكتف بما روى آدم ميتز بل رجعنا إلى الأصل الذى أشار إليه ، وهو كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص ٤٣٩ ووجدنا النص هناك مضطرباً ، لذلك قيدنا فكرة اعتزال عضد الدولة وقلنا فيما يظهر ، وأيضاً فإننا حاولنا أن نربط بين دعوة الصاحب إلى الاعتزال وبين عضد الدولة فربما كان هو الذى دفعه إلى ذلك ونحن نورد ما جاء بمدخل الرسائل فى هذه المسألة ، جاء :

« وليس فى الرسائل ما يدل أى دلالة على أن دولة بنى بويه كانت تدعو إلى التشيع . . ونحن نجد فى الرسائل نزعة واضحة إلى القول بالاعتزال والدعوة إليه ، فقد جاء فى الرسالة التاسعة من الباب العاشر « مولاى يتدين بتعديل ربه ، ويعرف مواقع اللطف من صنعه ولا يشك فى اقتران الصلاح بفعله » وتتكرر فكرة التعديل هذه فى الرسائل كثيراً ، والغريب أن الصاحب لا يدعو إلى التشيع فى رسائله ويدعو إلى الاعتزال ! وهناك رسالتان طريفتان فى الباب السابع عشر وهما نصان صريحان فى أنه كان يبعث دعاة له إلى البلدان المختلفة يدعون الناس إلى الدخول فى مذهب المعتزلة ، ولسنا ندرى أكان هذا من عمله هو أم كان من عمل الدولة ، فقد كان عضد الدولة يذهب – فيما يظهر – إلى الاعتزال ، ويعرف التاريخ صلة دائمة بين التشيع والاعتزال منذ كانا . ويظهر أن التشيع اقترن فى هذا العصر اقتراناً تاماً بالاعتزال إذ كان أهل السنة يكرهون التشيع والاعتزال جميعاً »

وأظن قد اتضح الآن أننا لم نرجع اعتزال الصاحب إلى سيده عضد الدولة وأننا كنا بصدد مسألة أخرى هى مسألة دعوة الصاحب إلى الاعتزال دعوة رسمية وهل كانت من عمله أو بتفويض من سادته وأكبر الظن أن السؤال لا يزال مفتوحاً للاجابة عليه وإن كنا نميل – كما يبدو من كلامنا – إلى أنه كان بتفويض من سادته .

أما الصلة التى عرض لها الأستاذ الفاضل بين البويهيين والاعتزال فلعله يوافقنى على أنه كان متسرعاً فى تفصيل الحديث عنها وأنها فى حاجة إلى بحث عميق واسع ، وهو بحث يعتبر جزءاً من بحث أكبر وهو بحث الصلة بين المعتزلة والشيعة وخاصة فى القرن الرابع قرن الصاحب بن عباد .

وبعد فإني أنتهز هذه الفرصة لتحية أخي الأستاذ التونسي مقدراً ما دعاه إلى كتابة مقاله من محبة البحث واستيفائه ، وإنه ليشكر على أن أتاح لي هذه الفرصة لأصحح بعض ما جاء في مقال صديق الدكتور الاهواني ، وإن له الآخر مني أجمل الشكر والثناء ...

شوقي ضيف

تصحيح نسبة كتاب :

في الجزء الثاني من كتاب « المفصل في تاريخ الأدب العربي » ترجمة للامام ابن تيمية .

وقد دعاني ما فيها من المبالغة لقراءة الترجمة مرات فكنت أقف في كل مرة عند قول المؤلفين «وبلغت مصنفاته ثلثمائة مجلد» قائلا فيمه ؟ حتى لفت نظري قولهم « أكثرها في التفسير والفقه والأصول » .

لفت نظري ذلك لأن الذي كان معروفاً بالفقه والأصول والتفسير إنما هو ابن تيمية الجد لا الحفيد وهو المترجم .

وما إن تأملت قول المؤلفين « وأشهر هذه الكتب منتقى الأخبار !! وفتاوى ابن تيمية الخ حتى آمنت بأن هناك خلطا نشأ من عدم التفرقة بين الجد الذي هو صاحب « منتقى الأخبار » قطعاً وبين الحفيد وهو المترجم .

وإني لأسأل عن تلك المصنفات التي ذكروها في التفسير والفقه والأصول . أهي للحفيد حقاً كما زعموا أم هي للجد ولكنها نسبت إليه كما نسب كتاب منتقى الأخبار ؟

فهل من محقق يزيل هذا الشك ؟

محمد الأمين

جوائز فاروق الأول للصحافة الشرقية :

[مؤسسة إدجار جلاد بك]

تذكر إدارة جريدتي الزمان والجورنال ديجبت حضرات الصحفيين بقرب حلول موعد الجوائز التي تمنحها (مؤسسة إدجار جلاد بك لجوائز فاروق الأول للصحافة الشرقيـــة) في ١١ فبراير من كل عام بمناسبة عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول للصحفيين في مصر والبلاد الشرقية الذين يتفوقون في مهنتهم ولا تزيد سنهم على الثلاثين سـنة . وستمنح هذه الجوائز حسب النظام الآتي :

١٠٠ جنيه للصحفي الذي يكون قد كتب أحسن مقال باللغة العربية في موضوع وطني .

١٠٠ جنيه للصحفي الذي يكون قد قام بأوفى تحقيق صحفي في موضوع عام ونشر باللغة العربية .

١٠٠ جنيه للصحفي الشرقي الذي يكون قد كتب أحسن مقال بلغة أجنبية (الإنجليزية أو الفرنسية) في موضوع شرقي .

ويجب أن تكون هذه المقالات قد نشرت في المدة من ١١ فبراير سنة ١٩٤٧ إلى ١٥ يناير سنة ١٩٤٨ .

ويرسل من المقال المقدم للمباراة ثلاث نسخ إلى إدارة جريدتي الزمان والجورنال ديجبت بالقاهرة وستحكم في هذه المباراة لجنة من كبار الصحفيين وتعلن النتيجة في ١١ فبراير سنة ١٩٤٨ يوم عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول

المجمع العلمي العراقي الجديد :

أنشىء في العراق هذه الأيام مجمع علمي لخدمة اللغة العربية والنهضة الأدبية على مثال المجمع العلمي العربي في الشام .

وتكون أعضاؤه بمقتضى قانون المجمع من أربعة مؤسسين عينتهم وزارة المعارف هم الشيخ محمد رضا الشبيبي والدكتور فاضل الجمالي ، وزير الخارجية العراقية السابق ، والدكتور متى عقداوي ، مدير التعليم العالي في وزارة المعارف ، والدكتور هاشم الوتري عميد كلية الطب البغدادية وانتخب الأربعة السيد توفيق وهبي وزير المعارف والأستاذ بهجة الأثري والدكتور جواد علي وانتخب جميعهم الأســـتاذ منير القاضي عميد كلية الحقوق والدكتو شريف عسيران والأستاذ نصرت الفارسي .

وقد اجتمع العشرة لانتخاب مجلس إدارة المجمع ففاز الشيخ رضا الشبيبي بالرياسة (وهو المنتخب حديثاً عضواً في مجمع فؤاد الأول بمصر) وتوفيق وهبي والدكتور الوتري نائبي رئيس والدكتور جواد علي سكرتيراً .



ســـعدى التميمية *

للأســتاذ نجاتى صدقى

لقد شـغل هذا الحادث قبيلة بنى تميم الضاربة خيامها على ضفتى الدجلة ردحاً طويلا من الزمن ، ولم يهدأ لها بال إلا بعد أن دفع الثمن ؛ وكان غالياً .

ولهذا الحادث صلة متينة بالحب البدوى . . والحب البدوى أعنف من الحب الحضرى لأنه يقوم على الطبيعة البشرية المجردة فى حين أن الحب الحضرى تشوبه عناصر غريبة من المادة والاجتماع والرياء . . وهكذا صار للحب البدوى ملكه ، وصار للحب الحضرى شيطانه .

وزار مرة ملاك الحب بيت (سركال) (١) من بنى تميم ، وصوب السهم إلى قلب الفتاة سعدى وحيدة أبويها فترنحت وسقطت أسيرة الهوى البرىء .

ولسوء طالع سعدى أن يكون فتاها محسن غريباً عن قبيلة بنى تميم التى لا تبيح لأحد من غير قبيلتها أن يتزاوج من فتياتها ؛ فتشـاور الفتى والفتاة فى الأمر ، واتفقا على الفرار ، فرحلا إلى بغداد وسكنا فى كرادة زوية ، وهى ضاحية من ضواحى العاصمة تقع على ضفة الدجلة الشرقية ، تحيط بها حدائق غناء ، وأحراج من النخل الباسقات الشبيهات بسرب من الصبايا الرشيقات

وإذ كانت سعدى تتقلب بين ذراعى حبيبها وتشعر فى جواره أنها أسعد فتاة فى قبيلتها . كان أبوها يقلب (الدلة) مقسماً بأغلظ الأيمان ألا يقدم لأحد قهوة حتى يمحو العار الذى لصق به وبقبيلته .

ولقلب (الدلة) عنـد بنى تميم مغزاه . . فالدلة هى أبريق القهوة ، وإذا ما أراد أحدهم أن يثأر لنفسـه قلب أبريق القهوة رأساً على عقب ، وتركه مقلوباً إلى أن ينال بغيته .

وبعـد ثلاثة أشهر أفاقت سعدى من سكرة الحب ، وأخـذ ضميرها يؤنبها على فعلتها الشنيعة ، وراحت تتصور ما يلاقيه أهلهـا فى القبيلة من عار ومذلة ، بل ما تلاقيه القبيلة كلها من مهانة واحتقار بين القبائل المجاورة ، فارتبـكت وجعلت تفـكر فى مخرج من هذه الـكارثة . وللبدوية فى حالة كهذه أحد طريقين لا ثالث لهما : إما الاستمرار فى الغىّ أو الاستسلام ، وكلا الطريقين محفوف بالمخاطر .

أتعود إلى أبيها وتجثو على قدميه تسأله الرحمة والمغفرة ، أم تواصل حياتها السعيدة إلى جانب شقيق روحها محسن ؟

أتعود إلى أبيها وترفع عن كاهله وعن كاهل بنى تميم كلهم عبئاً معنوياً ثقيلا ، أم تظل مع (ولفها) تبادله هـذه المنوات اللذيذة فى العاطفة والأعصاب التى يطلق عليها الناس اسم الحب . و (الدلة) أتظل طويلا مقلوبة ؟ .

لاندرى سعدى كيف انسلت فى صباح أحد الأيام من فراش حبيبها ، وهو يغط فى نومه ، وخرجت تتعثر فى أذيالها ، ووجهتها بغداد .

وفى عاصمة الرافدين لجأت إلى بيت أحد الوجهاء من معارف أبيها بمثـابة (دخيلة) فقبلها الوجيه مع ما فى ذلك من متاعب لا حصر لها .

و (الدخالة) من العادات البدوية القديمة الجليلة ، ولا تزال متبعة فى العراق حتى أيامنا هذه .

قالت سعدى للوجيه البغدادى : أنا (دخيلة) عليك ؟ . . فرحب بها ، ثم عهد إليها أمر العناية بأطفاله إلى أن تتم وساطته مع أهلها .

وقضت سعدى (دخيلة) مدة ستة أشهر ، والوجيه لا يألو جهداً فى الوساطة لدى أبيها . . غير أن هذا كان يأبى دائماً أن يمد الوجيه بشىء ، وكان يطالب بأن تسلم ابنته نفسها دون قيد أو شرط . . أو كما قال للوجيه مرة : « لقد خرجت قضية سعدى من يدى ، فالقبيلة هى التى تقرر مصيرها . . وما أنا فى مثل هذا الظرف إلا منفذ لرغبة بنى تميم » .

(*) أذيعت من دار الإذاعة الفلسطينية بالقدس .

(١) السركال : هو مالك صغير يستخدم عدداً من الرعاة والمزارعين

وظلت (الدلة) مقلوبة كما كانت منذ تسعة أشهر .

أما سعدى ، فكانت تمنى بأطفال الوجيه ، وتقص عليهم القصص اللطيفة ، التى تتحدث فيها عن الغزلان ، والإبل والسراب ، والعواصف الرملية ، والرياح السموم ، والقفار الوعرة والواحات النضرة . . كما كانت تغنى لهم أغانى تذكر فيها الدجلة والفرات ، والنيام ، وليالى بغداد ، ونسيمها العليل ، ونجومها الساطعة .

واستمرت الوساطة ، ولكن دون جدوى ، وظلت (الدلة) مقلوبة .. وغدت عينا سعدى محمرتين مثل الجمر من قلة النوم ، وكثرة البكاء ، فهى لم تظفر بعطف أبيها وخسرت حبيبها الذى خيل إليه أن ذويها اختطفوها ، وقطع الأمل من رؤيتها أو الاجتماع بها إلى الأبد .

ولما رأى الوجيه أن لا فائدة من الوساطة ، وأن من الخطر إبقاء سعدى فى بيته أكثر مما بقيت ، عقد النية على نقلها إلى بيت منعزل فى حى (الكاظمين) ولأهلها أن يأخذوها من ذلك البيت إذا أرادوا وليس من بيته . وبذلك يصبح فى حل من مسئولية (الدخالة) الأدبية . .

وغادرت سعدى بيت الوجيه وهى تعانق أطفاله وتغسل وجناتهم بدموعها ، فيسألونها متألمين: إلى أين أنت ذاهبة ياسعدى؟ كيف تتركيننا ؟ ومن الذى سيقص علينا القصص الجميلة ، ويغنينا الأغانى العذبة ؟ .

فتجيبهم بكلمات لم يفقهوا لها معنى . إنى ذاهبة لأرى ما قدر لى ، وما كتب على جبينى .

ومكثت سعدى فى ذلك البيت المنعزل فى الكاظمين ثلاثة أيام تنام على الحصير ، وتتغذى بالخبز والماء .

وكانت فى هذه الأيام الثلاثة لاتنفك تغنى هذه الأغنية الشعبية:

هلى يا ظلام هلى
جيبـــوا لى وأنى إلى
غايبين يا ظلام
ترى الفركة جوت
قلبى جوى

***

لا يا هلى الظلام
لا رحم عـــدكم
جيبوا لى وأنى عاد
موش أنـــا بنـكم ؟
لا يا هلى الظلام
مـــا كو مروة
جيبـــوا لى ولنى عاد
قلبى نجوه
جيت ولقيت الدار
خالى من الأحباب
صبن دموع العين
يم عتبـــة البـــاب

وفى فجر اليوم الرابع طرق سمع سعدى وقع أقدام وصرير مفتاح ... وهمهمة ودمدمة .. فانتصبت مذعورة ، فرأت نفسها وجهاً لوجه قبالة أبيها ، وأشقائها ، وممثلين عن قبيلة بنى تميم . أدركت سعدى لساعتها ما صمم القوم عليه ، فجثت تبكى ، وتطلب العفو . لكن يداً قوية أخذتها من ناصيتها ، ويداً أخرى أقوى أخذت تسلبها النفس . وكانت فى حشرجتها الأخيرة تقول إنى عذراء . . إنى عذراء ! . .

وفى مساء ذلك اليوم أشيع فى قبيلة بنى تميم أن أبا سعدى عدل (الدلة) ! .

نجاتى صدقى
